هَاني نقشبندي

اختِلاس

دار الساقي

اختلاس

مقدمة

كثيراً ما كنت أشعر أن الحياة تكرّر نفسها دون إرادة منا. أتخيل الله يهبنا الفرصة لإعادة اكتشاف أنفسنا، والتخلص من خطايانا، لنصبح أكثر نقاءً وقرباً منه.

لكن ذلك لا يأتي دون الاعتراف بهذه الخطايا التي ستتكرر بدورها إن بقينا مختبئين وراء الممنوع بلا سبب، والحرام في غير حرمة!

ربما يشاركنا الآخرون في الخطايا نفسها. لكن دورنا ليس إصلاح ثقوب الكرة الأرضية، بل إصلاح ثقوبنا نحن وليصلح الآخرون ثقوبهم.

هي محاولة للعلاج إذاً، لكنني لن أكون الطبيب هنا، بل لعلني المريض أكثر مني الطبيب. وكلي ثقة أن المريض هو أفضل طبيب لدائه.

كلّنا اليوم يختلس شيئاً من الآخر: قبلة، نظرة، أو ابتسامة رغبة.

وبالنسبة إليّ أنا فقد اختلست روايتي من كل ذلك، وأيضاً، من قصص امتزج فيها الواقع بالخيال فأصبحت واقعاً محضاً، فمن قال إن نصف الواقع المحض ليس خيالاً محضاً؟

المؤلف

كيف لسارة أن تدع اليوم يمضي هكذا؟

فقد دخلت هذا الصباح عامها الحادي والثلاثين، وما كانت لتدع يوماً كهذا يعبر صامتاً، وقد سبقه ثلاثون يوماً مثله أتت جميعاً بلا هدايا أو احتفال.

بلى، ستكون هناك هدايا، وسيكون هناك احتفال.

ضوء تسلل بعضه من خلف ستائر حجرة النوم، ينعكس على بريق شفتيها وهي تزمّهما إلى داخل فمها، قبل أن تمسح بطرف خنصرها شيئاً من الأحمر القاني من حرف شفتها السفلى.

ألقت نظرة إلى هندامها، ثم نظرة أخيرة إلى مكياجها حيث الكحل في موضعه، والشفتان جاهزتان لكل احتمال، وأحمر الخدود نائم كغشاء من الدانتيل الرقيق على وجهها.

بحرص تضع غطاءً خفيفاً على شعرها، وتتجه إلى باب الدار تلتقط من شمّاعة قريبة عباءتها وتخرج.

كان السائق في انتظارها، وفي عين كل منهما نظرة باهتة إلى الآخر: هو يؤدي عملاً لم يكن يرغب فيه يوماً، وهي مجبرة على أن يكون الغريب معها ليكون قائدها ودليلها والرقيب عليها.

في السماء بعض غيوم الشتاء تعد بشيء من مطر.

أسرعت إلى داخل سيارتها، وقبل أن تتحرك كانت قد أسدلت الغطاء على وجهها، وأعطت السائق تعليماتها إلى السوق.

غريب أن تذهب سارة بكامل زينتها إلى السوق. لكنه ليس بالغريب على شخصيتها وقد قررت منذ الصباح أن يكون اليوم لها، لها وحدها.

وكجزءٍ من طقوس التفرد بهذا اليوم، توجّهت إلى السوق تبحث عن هدية تهديها إلى نفسها، مطلقة العنان لمخيلة خصبة بأن أحداً قد تذكر ميلادها بهدية.

هو حلم زجت بنفسها فيه بعد أن اعتادت، في السنوات الأخيرة، أن تعيش حياتها نصف حقيقة ونصف حلم. النصف الحقيقي اليوم كان في الهدية ذاتها، أما النصف حلم فهو أن حبيباً قد تذكرها!

ما أجمل الحلم! أحياناً هو أجمل من الواقع، بل هو أجمل من الواقع كثيراً، على الأقل بالنسبة إلى سارة.

كانت السيدة قد أدركت منذ وقت طويل، منذ ليلة زفافها الأولى، والتي ستبقى تهرب من ذكراها طوال عمرها، أن سعادتها رهن بما تقدمه هي لنفسها، وبما تستطيع تجاوزه من عذابات وحدتها وهي الزوجة والأم من دون مساعدة أحد. ذلك أن أحداً لا يفهم ما تريده امرأة في مجتمع، الرجال فيه أنصاف آلهة والنساء ميّتات جاهزات للرحيل.

وبين الحلم والواقع نافذة صغيرة تلجأ إليها سارة كلما خانها الحلم وكدّرها الواقع، هذه النافذة هي يوميات تكتبها كلما شاءت أن تزيح هماً يجثم على صدرها.

في هذا الصباح الذي قرّرت فيه سارة أن تخرج إلى السوق لشراء هديتها، كتبت هذه العبارة في يومياتها: «ليست الحياة إلا صراعاً مع الحزن!».

على إيقاع مطر شحيح بدأ يسقط معانقاً رمالاً قتلها العطش، سألت سارة نفسها بينما السيارة تسير ببطء تجاه السوق:

«لماذا لا أكون كالأخريات؟».

ألف مرة سألت نفسها السؤال إياه.

وألف مرة حصلت على الجواب نفسه: «ليس الأمر بيدي».

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يجلب بعض العزاء لها، ولو كان مجرداً من كل قيمة أو فائدة.

«ليس الأمر بيدي» جواب ميت، لكنه قادر على إطفاء شعلة هادئة تلمع في عيني سارة من حين إلى حين.

تنتمي سارة إلى عائلة سعودية محافظة. تزوجت مبكراً، ولها توأمان، أتيا في وقت متأخّر من زواجها.

بشرتها تميل إلى السمرة قليلاً، وقوامها يعاند الجاذبية، وعيناها كبيرتان شديدتا البياض والسواد، مع شعر هو الليل الطويل ينسدل متموّجاً حتى أسفل ظهرها.

جمال يستحق أن تقوم ثورة من أجله. لكنها أضعف من ثورة صاحبته الثائرة على نفسها، وأقل من مجموعة ثورات متلاحقة اعتادت التعايش معها كمنتصرة حيناً، أو مستسلمة في معظم الأحيان.

ثورتها الأخيرة كانت على غطاء وجهها. لم تكن تلك أخطر الثورات لكنها الأكثر تكراراً، إذ لا تكاد تنتهي من المواجهة مع أهلها حتى تبدأ مع زوجها، ولم تكن الصديقات في منأى عن ذلك.

سارة لا تريد أن يحوّلها الغطاء إلى جثة في كفن أسود. لا تريد أن تسير ميتة وهي على قيد الحياة. لا تريد أن تحس بالوحدة وراء الغطاء وهي التي تخضّبت بالوحدة من دونه.

حتى والدتها الأقرب إلى نفسها، كانت تعجز عن رؤية الحجم الحقيقي للغطاء. إنه أكثر سماكة من سور الصين العظيم، لا تعلم من هي وراءه ما يدور حولها. «هو عمل مقصود إذاً أن لا نرى شيئاً». قالت ذات يوم.

إذا كان الهدف من الغطاء هو الحشمة، فإن الغطاء الحقيقي هو عفة المرأة وكرامتها، بقطعة قماش صغيرة أو دونها. كانت تقول لأهلها كل مرة، وهم لا يفهمون ذلك، ولا سارة نفسها تفهم، أن لا علاقة للعفّة بالموضوع، فالمسألة عرف وعادة لا أكثر.

بعد حين أدركت أن قرارات أهلها، وحتى زوجها، لا علاقة لها بمبدأ ديني أو شرعي، سواء كان الأمر متعلقاً بالغطاء أو بما هو أقل من ذلك أو أكثر. بدأت تفهم أن الأهل معنيون فقط بكلام الناس. هي مشكلة الإرث الميت كالأحفورة. هي التقاليد التي يصرون على إحيائها في زمن ليس زمنها!

«لماذا يسمحون لي أن أكشف عن وجهي عندما أسافر إلى خارج السعودية، حيث لا تراني سوى العيون الغريبة؟» كانت تسأل أمها عندما يحتدم الصراع في المنزل مع أشقائها الذين التحى أكثرهم.

كانت تضيف دوماً: «إنه الخوف من تقاليد ميتة يا أمي، تقاليد تقف على الحدود فلا تغادر معنا، وتنتظرنا في المكان نفسه عند عودتنا، وبين اللقاءين تكمن الحرية!».

كثيراً ما كانت تختم نقاشها بالعبارة التالية: «والله إن الجاهلية كانت أفضل من الآن!».

تسير السيارة ببطء وسارة تفكر في أهلها وهديتها، وتزيح شيئاً من الغطاء عن وجهها.

في السوق التي تزورها هذا المساء على عزف المطر، لا تعلم أية هدية ستشتري.

«سأرى ما الموجود حسب الجديد والوقت». الوقت هنا أهم من الشيء الجديد لأنها لا تريد، برغم غطاء وجهها، أن تكون فريسة للعيون الجائعة، من البائع المحروم إلى سائقها الذي استوطنت الغرائز في عينيه، إلى باقي الرجال الذين يجثون على ركبهم طمعاً في رقم هاتف.

لكن أكثر ما تخشاه هم المطاوعة. رجال الشرطة الدينية. «آه من هؤلاء! بعضهم أجهل من جاهل». كم تفزع سارة من صرخاتهم التي تشبه صرخات مجانين في مصحّ عقلي.

لسارة تجربة مع أحدهم. إذ نهرها ذات يوم في السوق، مهدداً بعصا طويلة في يده، كي تسدل الغطاء بكامله على جسدها كله، من وجهها إلى قدميها، حتى لتكنس بعباءتها الأرض وهي تسير. لو كانت أوروبية لما تجاسر.

لم تلقِ بالاً إليه، تجاهلته، ودون أن تنظر أحست بطرف عصاه وقد لامسها. استدارت في غضب تريد أن ترميه بكلمة، لولا أن تداركت نفسها. فهي تعلم أن ضربة إن أتتها من جاهل كهذا فلن ينقذها أحد.

كانت تسمع الكثير من القصص عنهم. لكن أن تخوض التجربة بنفسها فذاك شيء مختلف.

«هؤلاء الذين يدّعون العفّة، لهم عيون تلتهم ألف امرأة وراء ألف غطاء. قليل منهم ربما صدق في دعوته لكن أي قليل هذا الذي نلتقيه؟».

ذات يوم اختفى عنها سائقها في السوق. غاب ساعةً، ثم ساعتين. اضطرت للذهاب إلى منزلها في سيارة أجرة. فور وصولها، تلقت

اتصالاً من سائقها يخبرها أنه مسجون في مركز هيئة الأمر بالمعروف.

«ماذا عملت؟» سألته في فزع.

أخبرها أنه بينما كان ينتظرها في مدخل السوق، هوت عصا أحد رجال الهيئة الدينية عليه، وعلى عدد من الآسيويين في صرخات هستيرية تدعوهم إلى المسجد وقت صلاة العشاء. أخبرهم أنه ينتظر سيدته، وليته ما فعل، فقد جرّوه من عنقه مخفوراً إلى السجن، ريثما يتأكدون من وضعه. كان معه اثنان غيره أحدهما بوذي، وآخر هندوسي، وجميعهم قد أمروا بالتوجه إلى المسجد للصلاة. وقد فعلوا قبل أن يعادوا إلى سجنهم من جديد.

أمضى السائق ليلته في السجن ريثما حضر شقيق سارة في اليوم التالي ليطلقه منه، بعد تعهد بعدم تكرار ما حدث.

«من يجب عليه أن لا يكرر ما حدث: السائق أم المطاوعة؟» تساءلت الملائكة في سمائها.

منذ ذلك الوقت وسارة تطلب إلى سائقها، عندما تنزل إلى السوق، أن لا يغادر السيارة مهما كان السبب، كما لو أن الرجل في موقع عسكري لا مركز تجاري.

تتذكر سارة قصة سائقها وسيارتها لا تزال تشق طريقها نحو السوق. الكلمات بينها وبين سائقها قليلة جداً، لكن عيونهما تلتقي كثيراً في المرآة الأمامية، بغير قصد، أو ربما بقصد.

شيء فيه كان يثيرها.

تحت الرذاذ الخفيف تغادر سيارتها وهي تعيد التأكيد على السائق أن لا يغادر السيارة، بل ينتظر حيث هو ريثما تنهي جولتها في السوق.

تعلم سارة أن هذا السائق يتميز بشيء تفتقده في كل من عرفتهم من الرجال، وهم ستة لا أكثر: والدها، وأربعة أشقاء، وزوجها. تلك الميزة أنه الوحيد الذي يطيعها من دون نقاش، كما أنه الجسد الأقرب لها بعد أن غاب جسد الزوج.

كانت سارة كثيرة الأوامر، فيقابل سائقها ذلك بهزة هندية لطيفة من رأسه. هو لم يكن هندياً صرفاً، بل تبدو عليه سمات أوروبية هندية مختلطة، مع عينين خضراوين. سألته ذات يوم عن جذوره، فأخبرها أنه من منطقة كشمير الهندية المرتفعة، وقد اشتهر أهلها ببياض بشرتهم وعيونهم الخضر.

حتى صديقاتها، كن يتغزلن بعينيه.

بينما هي تتجول وحيدة في المركز التجاري، فكّرت في شراء هدية واحدة فقط، لكنها أمام البائع اشترت اثنتين، ومن متجر آخر اشترت ثالثة، فرابعة فخامسة، ولم لا؟ فمعها من المال ما يكفي، على الأقل لهذه المناسبة.

رغبتها في عدم التباطؤ في السوق، لم تحل دون إحساسها بشيء من سكينة داخل المركز التجاري الذي اعتادت زيارته. وهو ليس بعيداً عن منزلها بأية حال.

كان المركز شبه خالٍ من المتسوّقين، حيث الوقت بعد العصر مباشرة، ولم يتهيأ الزوار للقدوم بعد، سواء للتسوق أو للغزل. وكما هي العادة، ما غادرت سارة من دون رقم أو رقمين تطايرا عليها. كان أحدهما من فتى أصغر منها بعشر سنين على الأقل. والرقم الآخر من رجل قد تخطى الخمسين من العمر.

لم تتأخر كثيراً في العودة إلى منزلها، حتى لا تطول غيبتها عن توأميها اللذين تركتهما مع الخادمة. ما كان يهمها زوجها كثيراً، فهي لا تعلم إن كان لا يزال نائماً كما تركته، أم خرج. والأمر في الحالتين واحد.

فمنذ فترة طويلة، ربما منذ اليوم الأول، يعيش كل في عالم لا علاقة له بالآخر. حرة هي في الذهاب حيث شاءت، ومتى شاءت.

فكرت سارة كيف أن الرجال لا يعرفون كم تكره المرأة أن تأتي حريتها من زوج لا يهتم متى تروح أو تأتي. اهتمامه يبدأ عندما تتحرك غرائزه. مرة في الأسبوع أحياناً، أو مرة في الشهر غالباً، وأحياناً تغيب رغبته فيها عدة أشهر.

عادت من جولتها في السوق بعد ساعتين وهي محمّلة بهداياها، وبعض الثياب لصغيريها، وزجاجة عطر لخادمتها. لم تشترِ شيئاً لزوجها، فمن قال إنه ينتظر شيئاً منها؟

تحب المرأة أن تشعر بحاجة الرجل إليها، كما هي حاجتها إلى هدية صغيرة منه، أو كلمة أصغر بكثير. لا سعادة في حياة المرأة تعادل سعادتها بزوج لا يستغني عنها. لا زوج يشتاق إليها لحظات، ثم يتركها قطعة محترقة على فراش مبتل.

من جديد تعود وتسأل نفسها: «لماذا لست كالأخريات؟»

كان الهدوء يخيّم على المنزل، وقد أضيئت فيه مصابيح خافتة تحبها سارة.

يقع المنزل في منطقة أنشئت حديثاً في أحد أطراف المدينة. معظم بيوتها فيلاّت صغيرة من دور أو اثنين.

الفيلا التي تسكنها سارة من دور واحد: ثلاث حجرات نوم وصالون كبير خصص قسم معزول منه للضيوف، والآخر لأهل الدار. وفي صدر

المنزل شرفة كبيرة ازدانت بمجموعة من أصص الزهور التي تعشقها سارة، وتتفقدها كل صباح.

تمضي سارة فور دخولها المنزل إلى غرفة طفليها لتطمئنّ إليهما، وقد لعبا وناما. نادت خادمتها لتعطيها ما اشترته لها. أخبرتها الخادمة، وهي تشكرها، أن زوجها قد ترك لها رسالة يعلمها فيها أنه مسافر وسيعود بعد يومين.

«حسناً فعل» قالت وهي تمدّ يدها للخادمة بزجاجة العطر، هديتها.

توجهت إلى غرفتها وهي أكثر انشراحاً. ربما لأن خالد، أو الدكتور خالد، كما كانت تقول استهزاءً قد سافر كعادته، وسيعود بعد يومين.

خلعت ثيابها، واستحمّت، ثم تزينت من جديد، ولبست ثياباً أخرى شفّافة تكشف عن كل تفاصيل جسدها. بثيابها تلك التي ما شاهدها بها أحد من قبل، حتى زوجها، جلست على مقعد أحمر يجاور سريرها الذي تزين هو الآخر بغطاء من اللون نفسه.

تذكّرت يوم قرأت في كتاب لها أن اللون الأحمر دليل الشخصية القوية. وهي تحب أن تكون امرأة قوية، لكن غير مسيطرة. في رأيها أن المرأة عندما تسيطر على الرجل ستخسر أنوثتها من جهة، وستخسر الرجل نفسه من جهة ثانية. فمن قال إن المرأة تحب رجلاً تسيطر عليه؟

المرأة الحقيقية هي التي تحب أن تتدفأ بحنان رجل أقوى منها، فتكون له مكمّلاً لا تابعاً. لا أقوى من شخصيته، ولا أدنى من كرامتها.

كل ما اشترته ذاك اليوم وضعته في صندوق خاص به، وغلّفت جميع الصناديق باللون الأحمر، واحد منها فقط تميز برباط أسود مع عقدة على شكل وردة.

افترشت كالطفلة الأرض، تفتح هداياها بطريقة عبثية، وأمام كل هدية كانت تمثل دور من قد فوجئ بهديته. هكذا بدت بين العلب الفارغة والأوراق البراقة، ساحرة كأجمل ما يكون السحر، وطفلة كأجمل ما تكون البراءة!

علبة أو أكثر كانت فارغة عن قصد. أوراق جميلة تغلّفها، ثم لا شيء في الداخل. ربما تعمدت هي ذلك، كي تدفن في جوف العلبة الكثير من وحدتها وأحزانها. ربما هي تعمدت أيضاً أن تؤكد لنفسها من جديد، أن القيمة الحقيقية ليست في الهدية، بل في أن تكون هناك هدية ولو علبة فارغة.

فتحت كل العلب. ما بقي شيء سوى العلبة الحمراء برباطها الأسود المعقود على صورة وردة.

كانت هي خاتمة الحفل. وضعتها على الطاولة أمامها تتأملها بصمت.

قفزت من على الأرض تدير بعضاً من الموسيقى، وتخفف بعض أضواء غرفتها. عادت إلى حيث كانت من جديد تنظر إلى الهدية الأخيرة بصمت. وبهدوء تناولتها وكأنها تأخذها من حبيب لها. ضمّتها إلى صدرها، مخمنة ما يكون في داخلها، كأنها لا تعرف، وتنتظر المفاجأة.

فالمفاجأة أهم من الهدية. وهي المفتاح في الانتصار على الحروب، والمرأة!

هذه المرة ما مزقت أغلفة الهدية، بل فتحتها بهدوء.

داخل العلبة الأخيرة كانت أجمل ما اشترته ذاك اليوم: وردة بيضاء تختصر رائحتها كل ما تبقى من أمل.

ومع إيقاع الموسيقى، تصاعدت من داخل العلبة ضحكات رجال وآهات نساء يطفئن ظمأ أجسادهن.

جمعت سارة يديها وضمّتهما إلى صدرها في فرح، كمن تحضر مسرحية إغريقية، تتراقص فيها آلهة الجمال مع المحبين. بينما هي تتأمل الجمع في لهوهم، حلمت برجل يراقصها، ويد تعبث ببعض أنوثتها.

رويداً رويداً هدأت الأصوات حتى توقفت تماماً، تاركة الوردة البيضاء وسارة في وحدتهما من جديد.

رفعت سارة الوردة إلى مستوى عينيها. حضنتها وقبلتها، ثم حضنتها من جديد وقبلتها، ثم نهض كلاهما عن الأرض إلى الأريكة الحمراء.

على هذه الأريكة التي حلمت سارة يوم اشترتها، أن تمارس عليها الجنس مع زوجها، نامت بكامل ثيابها وزينتها ووردتها. نامت باكراً على غير عادتها. لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء. خلال الليل، حاولت أكثر من مرة أن تستيقظ، لتبدل ثيابها، لكن الآهات النسائية التي عاد بعضها يصدر من علبتها أبقتها مكانها، كما لو كانت تشارك الجميع في حفلة جسدية على الأريكة الحمراء. هكذا بقيت نائمة حتى قبل الخامسة صباحاً بقليل، عندما أيقظها نقر خفيف لحبات مطر على نافذتها، ومداعبة خفيفة من الوردة البيضاء التي غفت بين نهدين ثائرين!

توضّأت تهيّأ لصلاة الفجر، وهي لا تزال نصف نائمة، أو نصف حالمة بآهات الليلة الماضية. بعد أن فرغت من صلاتها، أعادت الصلاة من جديد. ثم صلت ما فاتها البارحة بعد أن نامت باكراً.

توجهت وهي لا تزال بلباس صلاتها إلى حجرة توأميها لتطمئن إليهما. كان أحدهما قد استيقظ وبقي ينظر بهدوء إلى سقف الغرفة كمن لا يرغب في إزعاج توأمه. قبلته، وقبل أن تهمّ برفعه إليها كانت الخادمة تدخل عليها لتبدأ يومها مع الطفلين.

عادت سارة إلى حجرتها بعد حوار سريع مع الخادمة. نزعت ثوب صلاتها وجلست على طرف أريكتها تتأمل حفل البارحة، والهدايا المنثورة والورق الممزق.

لملمت هداياها، وألقت بها مجتمعة على السرير، وتمددت بقربها تحلم من جديد، فما وراءها؟

طفلان أحدهما نائم، وزوج يعلم الله أين هو.

استيقظت مرة أخرى قبل التاسعة صباحاً بقليل، على صراخ أحد الطفلين.

هرعت إليه، فاندفع إليها بنصف جسمه من يد الخادمة. التقطته وقبلته قبل أن ينضم إليه شقيقه. بقيت معهما نصف ساعة، ثم أبدلت ثيابهما، ووضعت أمام كل منهما بعض اللعب، وعادت هي إلى لعبها.

كانت لا تزال تبتسم إثر حفل البارحة، وتمنت لو أن الحفلة دائمة. ارتمت على السرير لحظات، ثم نهضت من دون رغبة ترتّب حجرتها، استعداداً لدخول الحمّام طلباً للانتعاش.

نشّفت جسدها والتفت بمنشفة كبيرة، ووضعت أخرى على رأسها. ثم غادرت غرفتها إلى حيث خادمتها فأعطتها تعليمات اليوم المتكررة منذ ألفي عام، ماذا تطبخ، ماذا تغسل، ماذا تكوي، متى تأكل ومتى تشرب؟

عادت إلى غرفتها لتلبس ثيابها على مهل، في انتظار المساء للقاء صديقاتها ومعاودة الأحاديث ذاتها. وقبل ذلك أحياناً بمشاهدة التلفزيون، أو قراءة ما يصلها من كتب جديدة، أو مطالعة الصحف والمجلات. وهذه بدورها مكررة منذ عهد الكتابة. الشيء المختلف هو تاريخ اليوم، مجرد رقم لا أكثر.

كل يوم تبحث عن شيء يستحق أن يكون جديداً، فلا تجد أكثر من رقم!

حتى الأخبار هي ذاتها. لا جديد سوى من راح ومن جاء، من ولد ومن مات، مجرد رقم، بعض ما كانت تحب مطالعته في جريدتها اليومية الصفحات الدينية. أحياناً تقرأ صفحة، وأحياناً أخرى صفحتين. بعض المقالات الدينية تعجبها، سيما تلك التي تحمل الكثير من التسامح والأمل. وبعضها تجعلها حائرة، بين رحمة الدين وقسوة رجال الدين. بين الاجتهاد في الفكر، والخوف الدائم من الاصطدام بغضب الله من لا شيء، والدعوة إلى الاستغفار من ذنوب لم ترتكب!

وغالباً ما تجاوزت الصفحات من دون أن تقرأها. بحيث أن جريدة كاملة لا تدوم في يدها سوى عشر دقائق، أو ربع ساعة على الأكثر.

ذاك الصباح، كانت تجلس على أريكة جلدية سوداء قبالة التلفزيون في صالونها الكبير، وهي تنظر إلى كومة صحف أمامها، وتتساءل عن سبب اشتراك زوجها في هذا الكم من الجرائد والمجلات.

هو الفراغ والصمت يجعلاننا نحاور الباب والحائط. من أجل ذلك تبدو مطالعة الصحف والمجلات شيئاً مسلياً، أو مكدراً، وذاك أيضاً يغني عن الفراغ والوحدة.

«الوحدة... هي الشيء الوحيد الذي يشعرنا أن وجودنا كان خطأً جنسياً». كتبت ذلك في مذكراتها ذات يوم. ابتسمت وهي تتذكر ما كتبت، ثم أخذت تتصفح بعض المجلات التي التقطت واحدة منها بعد أن فرغت من مطالعة الجريدة.

أول ما انتقت كان مجلة نسائية واظبت منذ سنوات على قراءتها.

قلبت بعض الصفحات، وأمام أبواب الأزياء والمكياج، ابتسمت ساخرة تفكر: «ما عاد لنا همّ إلا ماذا نلبس وكيف نتزين. لمن: لخادماتنا، أو لسائقينا؟».

شردت لحظة وهي تفكّر في سائقها الهندي الذي التحق بخدمتها منذ بضعة أشهر فقط. ودون أن تدرك عضّت شفتيها، وتذكرت زوجها، ثم بكت.

لذة محترقة تمضي سريعاً، مع دمعة باردة سقطت منها. وقبل أن تسحب منديلاً تجفف به مآقيها، دخلت عليها خادمتها تخبرها أن صديقتها أسماء تطلبها على الهاتف.

كانت الدمعة التي ذرفتها أقوى صوتاً من رنين الهاتف، فما سمعته.

«أرغب في زيارتك» قالت أسماء.

لم تكن أسماء من الصديقات المقربات. ومعرفتها بسارة لا تتجاوز العام. ومع امرأة كأسماء اكتشفت سارة أن أعظم الخوف يأتي من حيث لا نتوقعه. عاشت سارة التجربة عندما زارتها أسماء ذلك اليوم في غير أوقات الزيارات المسائية المعتادة.

لمحت في عيني زائرتها، وهي الزوجة وأم ثلاثة أطفال، بريق اشتهاء ما رأته من قبل.

كانت الصديقة ترتدي قميصاً شفّافاً بلا حمّالة صدر، فبدت الحلمتان نافرتين على نحو مثير. أما سارة فكانت ترتدي فستاناً منزلياً يكشف شيئاً من صدرها وجزءاً من ساقها حتى أول فخذها.

أحضرت الخادمة عصيراً وبعض البسكويت، ثم التفتت المضيفة تحادث ضيفتها، دون أن تسألها عن سبب زيارتها غير المتوقعة.

بادرتها أسماء:

«سافر زوجي في رحلة عمل، وأبنائي في المدرسة، فأحسست بفراغ فأتيت هرباً منه إليك.

أعتذر عن الزيارة في هذا الوقت لكني أحببت أن نكون وحدنا بعيداً عن الصديقات».

ردّت سارة مرحّبة بزيارتها في أي وقت، لكنها قرأت للمرة الثانية شيئاً غريباً في عيني زائرتها.

حاولت أن لا تفكر في ما تشعر به، فقدمت العصير للضيفة، مع طبق البسكويت. أخذت أسماء كأس العصير بيد، وقضمت قطعة بسكويت بطريقة مثيرة باليد الأخرى.

ودون توقع اقتربت أسماء، التي كانت تجلس على المقعد المقابل، من الكنبة الطويلة التي تجلس سارة على طرفها، وهي تحمل كأس العصير في يدها. قالت وقد اقتربت شفتاها من أذن سارة، وصوت أنفاسها يعلو على صوت حديثها: «منذ فترة وأنا أنتظر وقتاً لنجلس وحدنا دون أحد».

شيء غير طبيعي سيحدث.

فكّرت سارة قبل أن تدفع بنفسها جانباً حتى الطرف القصي من الكنبة. مدّت الصديقة جسمها إلى حيث تموضعت سارة، وهي تمتدح طعم العصير لولا مرارة قليلة تخالطه «خذي جربي بنفسك». قالت الضيفة وهي تقدم الكأس إلى شفتي سارة، حاولت الأخيرة أن تمسك الكأس بيدها، فأصرّت صديقتها على أن تقدمها لها بنفسها.

خجلاً أو خوفاً، وافقت سارة، وبلا توقع تسلقت يد الصديقة شيئاً من فخذها. انتفضت سارة، فانسكب بعض العصير فوق نهدها الأيسر، حاولت أسماء إزالته بطرف إصبعها. وبعد ذلك لعقت الإصبع، ثم حاولت من جديد. جمدت سارة في مكانها لحظة، ثم انتفضت واقفة وهي ترتجف.

ـ ما الأمر؟ لم وقفت؟ سألت أسماء.

بتلعثم ردّت سارة:

ـ مضطرة للذهاب إلى مطبخي، فقد تأخر الوقت وما أعددت شيئاً لأطفالي.

ثم تابعت موحية إلى ضيفتها بأدب أن تنصرف: «لم لا تأتين هذا المساء مع بقية الصديقات، اعذريني فأنا مشغولة الآن؟».

مشغولة، بل مصعوقة هي سارة. فصديقتها التي تعرفها منذ عام تغويها. هل أثارتها ثيابها الشفافة؟

ابتسمت أسماء بخبث وهي تلتقط حقيبتها وتقف:

«كنت أحب أن أقضي معك بعض الوقت نتحدث بعيداً عن الصديقات. لكنك مشغولة الآن، ربما في وقت آخر».

بينما كانت تهمّ أسماء بالخروج، ارتفع أذان الظهر من مسجد مجاور، فراحت تردد بعض ما يقوله المؤذّن، كقديسة لا هم لها في الدنيا سوى الصلاة والتعبد، وكأن شيئاً لم يحدث تواً.

ودعتها سارة في منتصف الطريق وهي لا تزال ترتجف، غير مصدقة ما رأت وسمعت.

أبدلت سارة ثيابها بأخرى أطول منها، ونظرت في مرآتها أكثر من مرة

كمن تتأكد من طول ما لبسته واحتشامه. ثم عادت إلى أريكتها في الصالون الكبير والرجفة لا تزال بين أضلعها.

شردت قليلاً وهي تفكر في قصة أسماء، ثم أمسكت بجهاز التحكم تدير التلفزيون كيفما اتفق عله يصرف عنها صورة ضيفتها الغريبة.

تصدح موسيقى خفيفة تعيد إليها بعض هدوئها. لكن أسماء تأبى إلا أن تطل بصورتها من بين الأنغام. فتعيد سارة التفكير فيها دون إرادتها. تحاول طرد صورتها بعيداً، لكنها تحس بها إلى جوارها، وتسمع بوضوح صوت أنفاسها تداعب أذنها. تعضّ سارة شفتيها وهي تتذكر الحلمتين النافرتين من صدر أسماء، والثياب الشفافة التي تكشف عن رغبة متوقدة في كل ذرة من جسد ضيفة الصباح.

«رغبة تقابل رغبة». فكَّرت سارة، وتمتمت بينما هي تلقي برأسها فوق الكنبة الكبيرة وتضغط بيديها على صدغيها، ثم على صدرها وهي تضمّهما بقوة.

ترخي جسمها فجأة وتنظر إلى الفراغ من حولها. تنهض سريعاً تجاه غرفتها لتصلي الظهر، علَّ الشيطان يُذهب عنها الأفكار السيئة.

للمرة الثانية ذاك الصباح تستحم سارة. بعد أن أكملت صلاتها، عادت إلى الجلوس على الأريكة ذاتها، حيث لا تزال رائحة أسماء تعانق فضاء الصالون الكبير، وأنفاسها قريبة من أذنها.

قلبت قناة التلفزيون تطالع بعض الأخبار على عجل، وبلا اكتراث. ثم ألقت بجهاز التحكم إلى جوارها على الكنبة، بعد أن اختارت موسيقى هادئة.

نظرت إلى المجلات بقربها وأخذت تعيد تصفحها من جديد، وتنظر إلى الأغلفة وعناوينها.

لفت انتباهها عنوان عريض على صدر المجلة النسائية التي اعتادت متابعتها: «لأول مرة، حديث صريح عن الخيانة الزوجية!».

كأنه نكأ جرحاً، طوت سارة المجلة بين يديها، ثم رفعت قدميها تضعهما تحتها، وتعيد قراءة العنوان ثانية.

لماذا الخيانة الزوجية تحديداً هي ما استهوتها قراءتها؟

أهي رغبة الممنوع؟

أم هي رعشة إغواء أسماء لا تزال في جسدها؟

سرت في داخلها قشعريرة كتلك التي شعرت بها عندما تحسست صديقتها صدرها وهي تمسح العصير المنسكب عليه.

بشغف قرأت سارة مقدمة الموضوع، وما أثارها أنه يتحدث عن المجتمع السعودي والخليجي تحديداً. وهي تدرك مدى حساسية موضوع كهذا في مجتمع محافظ.

كان الأمل يحدوها أن تجد ما يجيب عن الكثير من تساؤلاتها. واصلت قراءة مطلع الموضوع فما كان مشجعاً. ثم قرأت الأسطر التالية، ثم كل الموضوع . لم تستغرق القراءة كلها أكثر من عشر دقائق، خرجت منها بلا شيء. فما وجدت ما يستحق القراءة. مجرد حديث عام، آيات من القرآن، وبعض الفتاوى التي تحذر من الخيانة الزوجية، لا أقل ولا أكثر.

كان التحقيق باهتاً، بل تافهاً، مجرد ملء صفحات، ولا شيء. هكذا بكل بساطة لا شيء، أحست سارة بسخف ما قرأت، وتساءلت في

نفسها: «أهذا كل شيء عن الخيانة الزوجية في مجتمعنا: آية ونصيحة؟».

كل ما ذكره التحقيق عن الخيانة الزوجية، أن مثل هذه الحالات هي ظاهرة شاذة غريبة لا نعرفها في مجتمعنا الإسلامي.

أهذه هي الصراحة التي كانت تنتظرها سارة من العنوان الذي أتى على الغلاف: «لأول مرة، حديث صريح عن الخيانة الزوجية».

تعرف سارة أن الصحافة هي لعبة عنوان، مجرد عنوان.

وكلما قالت إنها لن تقع في فخ العنوان الوهمي، وقعت في الشرك من جديد، إذ كيف تميز الوهم من الحقيقة في مجتمع لا يؤمن بالحقيقة؟

شيء آخر لفت نظرها في التحقيق، بل أثار حنقها، عندما ذكرت المجلة في خاتمة تحقيقها: «إن الخيانة الزوجية ليست من عادات مجتمعنا السعودي الإسلامي المتمسك بعقيدته، لكننا نقدمها لقرائنا من باب التوعية والتنبيه لما هو متفشٍ في المجتمعات الغربية من بلاء!».

ضحكت سارة بسخرية وهي تعيد قراءة «المجتمعات الغربية».

ومن أجل ذلك أولاً، بل من أجل ذلك فقط، قررت سارة، ولأول مرة في حياتها، أن تكتب إلى رئيس تحرير المجلة التي تصدر في لندن رسالة تردّ فيها على ما جاء في التحقيق المنشور عن الخيانة الزوجية، وتحديداً عبارة «المجتمعات الغربية»، التي جعلتها تضحك وتبكي في آنٍ واحد، وسط ارتعاشات الصباح.

التاسعة صباحاً في لندن.

يسير هشام باتجاه مكتبه، سالكاً طريقاً بمحاذاة نهر التايمز حيث تستقبله أصوات النوارس.

«آه ما أجملها هي أصوات النوارس».

ثلج خفيف يبدأ بالسقوط. آسر هو منظر الثلج بالنسبة إلى رجل ما عرف سوى رياح الخماسين.

بعد مسيرة متباطئة قدر المستطاع، يبتعد هشام عن مسار النهر، ويقترب أكثر من مكتبه وسط لندن. بعد لحظات يتراءى له مبنى الشركة حيث يعمل.

عشر سنوات قضاها في هذا المبنى، تنقل خلالها في الكثير من المواقع: من محرر مبتدئ، فمحرر معتمد، فمدير تحرير، فرئيس تحرير مجلة نسائية ذائعة الصيت.

جلس هشام على مقعده بعد أن خلع معطفه وبقايا من ثلج تراكمت فوق أفكاره.

تستقبله سوزي، سكرتيرته الجميلة، بقدح ساخن من القهوة السوداء، جنباً إلى جنب مع بريد المجلة وبعض رسائل القرّاء.

كل يوم يكاد يشبه سابقه. ساعات تمضي في عمل إداري أكثر منه صحافي، وغالباً ما بقي ١٢ ساعة أو أكثر وراء مكتبه لا يغادره إلا إلى

البيت مباشرة، أو إلى الحانة القريبة حيث يجتمع الأصدقاء والزملاء نهاية كل يوم.

كان راضياً بعمله وموقعه، وقريباً من زملائه لكنه كان يأخذ الأمور بجدية تفرض عقاباً أكبر من الجرم عند الخطأ. ربما هي الرغبة في إثبات الذات في موقع رئيس تحرير مجلة نسائية.

«حلمت دوماً بصحافة سياسية، أو منصب سياسي، أو كاتب كحد أقصى، لكن ليس رئيساً لمجلة نسائية، فما أدراني بشؤون النساء؟».

هذا ما كان يقوله لنفسه كل صباح عندما يطالع مجلته. وقد بقي كذلك حتى آخر يوم له في منصبه بعد عدة سنوات، نشر خلالها العشرات من التحقيقات والمقالات الاجتماعية، التي أدخلته بسرعة عالم المرأة السعودية الغامض والمغلق، لكون مجلته تتوجه إلى السوق السعودية بصفة خاصة، والعربية بشكل عام.

يا لسخرية القدر كيف يدخل الرجل الدائرة المحرمة لمجتمعه من أبعد نقطة عنه، من لندن؟

محظوظ هو مقارنة بالآخرين، أو ربما كان أسوأهم حظاً.

المجتمع السعودي بيئة جافة: «نولد، نكبر، نموت، ولا نعرف عن المرأة سوى ثلاثة أشياء: تحيض ولا نحيض. تلد ولا نلد. نخطىء ولا يحق لها الخطأ».

هكذا قرأ هشام عن المرأة حيث درس. حتى معلم الدين كان جل تركيزه على أن المرأة كائن يحيض. شيء مقرف. من أجل ذلك هي ناقصة دين. قال أيضاً إنها ناقصة عقل.

«حلمت ذات مرة، وأنا طفل صغير، بامرأة تنتمي إلى مخلوقات تسكن قمم الجبال، تخطف الأطفال في الليالي السوداء لتأكلهم».

أتى ذلك الحلم بعد يوم تحدث فيه أستاذ الدين في المدرسة عن المرأة، قائلاً إنها وعاء جلدي ملآن بالشر والفضلات!

ذات يوم آخر، وقد كبر هشام، سأل معلماً له في مدرسته المتوسطة: لماذا المرأة ناقصة عقل ودين يا أستاذ؟

«لأنها تحيض فلا تصلي، وأخرجت آدم من الجنة فعقلها ناقص». هكذا أجاب.

«ولماذا استمع آدم إلى المرأة؟ لماذا لا يكون هو المخطئ لا هي؟».

نظر الأستاذ إلى هشام بعينين يتطاير الشرر منهما، فخاف الصغير وجلس في مقعده مرعوباً.

«هذا الأستاذ الذي يبدأ الدرس قائلاً إن المرأة شقيقة الرجال، هو أيضاً من يختم الدرس نفسه بالقول إن المرأة ناقصة عقل ودين. ثم يبول أمام زوجته من الخوف». كان هذا التناقض الأول الذي اكتشفه هشام وهو على مقاعد الدراسة.

من كان يجرؤ على مخالفة رأي أستاذ الدين؟

مثله كثيرون قد صنعوا لأنفسهم قدسية تجعل من مجرد مناقشتهم خروجاً على الدين. فهم حماة الإسلام وجنود الله على الأرض، ولولاهم لتساقطت علينا لعنات السماء كما يتساقط المطر.

ومن هنا يأتي الدرس الأول الذي تعلمه هشام من مدرسته: «إن الله موجود من أجلنا وحدنا، فلا مؤمن سوانا، ولا صالح إلا نحن. وحدنا سنذهب إلى الجنة ركضاً، كما الآخرون سيدخلون النار زحفاً على بطونهم».

وتتكرر الأفكار ذاتها من جديد في كل مدرسة تعلم فيها هشام، حتى الجامعة والمسجد والبيت.

«فمن لا يؤمن بما نؤمن به نحن في السعودية، وبالطريقة نفسها، يصبح كافراً مع الزاحفين على بطونهم إلى النار»، كما كان يقول له بعض معلميه في الحلقات الدينية.

النار... اللصيقة الدائمة بذاكرة الطفولة، وغضب الله.

«ما أصبح الله إلهاً بل سجّاناً بكل صفات الجلاّدين. أما كان من الأفضل أن يعلمونا أن الله يحبنا ويغفر للمخطىء منا؟».

كثيراً ما فكَّر هشام في طرح السؤال على بعض أساتذته، فما تجاسر أبداً.

لم يكن هشام مقتنعاً كثيراً بفكرة الإله الجلاد. ولم يكن برغم سنّه الصغيرة تلك، يحصر الدين بصلاة وصوم وخوف أبدي من الشيطان والمرأة. برغم ذلك كانت المرأة هي الحاضرة دوماً في الذاكرة، والغائبة دوماً حتى عن رسوم الأطفال. فما كان أحد يعلم سوى أنها كائن يعاشره رجل بطريقة ما، فيأتي بالأبناء!

في مرحلة المراهقة تحسنت الصورة قليلاً مع متابعة بعض المجلات الفاضحة التي يأتي بها الأصدقاء من الخارج، حيث تباع وتشترى في سوق محلية سوداء.

كان الأصدقاء يتبادلون مجلات كهذه ويتاجرون بها في الوقت ذاته. حتى آباؤهم كانوا يطلبونها سراً، ليس رغبة بل حباً بالاطلاع على الأرجح. فمن قال إنهم أكثر دراية من أطفالهم بالنساء؟

بعد سنوات من الدراسة، انتهت بحصوله على شهادة جامعية، ولغة

إنجليزية عرجاء، ونظرية تقول إن المرأة فضيحة وعفن، وإن الله لنا نحن وحدنا أما الباقون ففي النار، تخرّج هشام بلا هدف يسعى إليه، وعادة ما يكون التفكير الأول في الزواج والجنس، كما هو شأن الشباب في وقت كهذا.

لم يكن هشام يحلم أن يكون صحافياً، وإن تمنى أن يكون كاتباً سياسياً، أو أديباً على أبعد تقدير. ولولا خسارة مني بها في تجارة بدأ بها حياته، لما مارس الصحافة إطلاقاً.

ذات يوم أشارت شقيقته الصغرى، واسمها حُلُم، إلى عنوان في جريدة يطلب صحافيين متدربين ففكر هشام كيف أن الله يخلق الإنسان في منتصف الطريق دائماً. فإما أن يمضي إلى الأمام، أو يبقى حيث تركه الله. من باب اليأس، لا الأمل، ذهب إلى مقر الجريدة وتقدم وقُبل سريعاً.

أمضى عدة أشهر يتدرب في موقعه الجديد قبل أن يقرر التفرغ للصحافة كعمل وقدر. لم يطل بقاؤه في مقر الشركة في جدة، إذ انتقل سريعاً إلى ذراع المؤسسة الرئيسة في لندن.

كان حتى تلك اللحظة يعيش طموحاً هو أعظم من أن يدفنه في حياة زوجية روتينية، كما انتهت إليه معظم تجارب من تخرّجوا معه. وكم كانوا يغارون منه ويحسدونه على عزوبيته.

إنها الصفة التي التصقت به حتى هذه اللحظة، وقد بلغ منتصف الثلاثينيات. لعل الصورة المقرفة التي كونها عن المرأة هي التي دفعته بعيداً عنها. ثم هي الحقيقة التي اكتشفها لاحقاً عندما أدرك لذة مذاق الجسد، فلملم ثيابه ورحل.

خلال الشهر الأول من وصوله إلى لندن، قرّر هشام المضي في حياته عازباً ما أمكنه ذلك، كي لا يفقد لذة مطاردة نسائه في جنّته الجديدة، ولذة البحث الأبدي عن المرأة المثالية في هذه الجنة. لكنه كان يحتاج إلى العديد من التجارب الفاشلة حتى يدرك أنه ليوقع بامرأة يرغبها، فلن يحتاج إلى إغراءات مادية أو شخصية كما كان يفعل معظم أصدقائه، بل إن كل ما عليه فعله هو أن يحادث المرأة كما يلامسها برقة خالصة، وأن يلامسها كما يحادثها برقة أكثر.

كان هشام يسعد بتجاربه الفاشلة والناجحة معاً طالما هو يكتشف كل يوم عالماً جديداً لا علاقة له بكل ما تعلمه. فالمرأة هنا كائن يمكن الجزم قطعاً أنه موجود، وأنه جميل، وأنه يفكر مثلنا ويتمتع بالحقوق ذاتها.

لكنه كان في حاجة إلى وقت طويل آخر كي يكتشف أنه، وهو الرجل، ليس بالإله الذي تجثو المرأة على ركبتيها أمامه طمعاً في إرضائه، كما قالوا له في المدرسة. فلا هي بالشيء العفن، ولا هي بالشيطان الذي لا هم له سوى الإغواء والخطيئة، كما كان يقول له بعض أساتذة الدين.

كان عليه أن يبدأ رحلة تعلم جديدة، من تحت خط الجهل.

بدأ يسأل عن كل شيء حوله. حتى عن اسم لندن، لماذا هي عاصمة الضباب؟

«لأن مدافئ القرن التاسع عشر كانت من الكثرة بحيث تغطي لندن بسحابة بيضاء في مواسم الشتاء». أجابه أستاذ في مدرسة اللغة الإنجليزية التي انضمّ إليها يوم قرر البقاء في العاصمة البريطانية، منتقلاً من السعودية، مطلع التسعينيات.

كانت المدرسة جميلة، والدراسة رائعة، وإن لم تخل من حرج في أكثر من موقع. كان هشام في الثلاثينيات من عمره، يوم التحق بفصل دراسي مع طلبة من جنسيات متعددة، أكبرهم لم يبلغ العشرين بعد.

في أول يوم مدرسي، دخل الفصل المخصص له، وعندما رآه الطلبة صمتوا بعد هرج ومرج. فقد حسبوه معلم اللغة الإنجليزية لما بدا عليه من عمر كبير مقارنة بهم. لم يشعر من قبل بخجل مثل ذلك اليوم قط. لم يطل مقامه كثيراً ذاك الصباح، إذ غادر على عجل بوجه كعرف الديك.

لعن في سره كل مدارس بلاده التي تخرج منها وهو لا يعرف الفرق بين اللغة الإنجليزية والهندية، فما كانت لغة الكفار موضع ترحيب قط في المدارس السعودية!

رآه ذات يوم صديق قديم لوالده، وهو يقرأ في كتاب لتعلم اللغة الإنجليزية. فقال له: لم تجهد نفسك في تعلم لغة الكفار، لعنة الله عليهم. عليك بالقرآن فذلك أنفع لك.

بعد فترة قصيرة، عاد هشام إلى مدرسته الإنجليزية يواصل تعلم اللغة بتشجيع من صديق له في لندن، وقد كان رئيسه في الوقت ذاته، واسمه عبد الرحمن. ولمزيد من التشجيع استطاع هذا الصديق أن يوفر له منحة من الشركة، تشمل كل رسوم دراسته.

تشجيع الصديق، والمنحة، ووفرة الجميلات في المدرسة، وتحديداً الجميلات، كلها كانت كفيلة بدفع هشام إلى الحياة في عرين أسد، لا مدرسة لغة إنجليزية.

هكذا بدأ دراسته من جديد. وهكذا أيضاً بدأ اختلاسه الأول لجميلات لندن في صفه. زال خجل الدراسة. لكن اختلاساته كانت

ملأى بالخوف من عصا تهوي على ظهره من شيخ يأمره بغض البصر. حتى في لندن، ما رحل عنه خوفه. كان لا بد له أن يقضي بضع سنوات قبل أن يشفى من المرض.

لم يكتشف هشام إلا متأخراً، أن لندن ليست هي المكان الذي يخفي فيه العشاق آهاتهم. هنا يجتمع الضد بالضد في وضح النهار كما في عتمات الليل. الإيمان مع الكفر، وحرية الفكر مع احترام الآخر.

صورة لم يعرفها الشاب في مدينته الساحلية التي قدم منها. جدة الأكثر تحرراً، على استحياء، من الأخريات. حيث الأذان يرتفع وسط قرع كؤوس الويسكي والنبيذ المعتق، وعشرات الراقصات شبه عاريات في بيوت للنخبة لا يجرؤ أحد على اقتحامها.

حتى رجال الهيئة الدينية (المطاوعة)، ما كانوا يجرؤون، لو علموا، على اقتحام بيوت كهذه.

سنوات دراسته التي قضاها هشام بين كتب أكثر من نصفها عن الله والدين، كشفت له أن الصراع الحقيقي بين المجتمع ورجال الدين، وإن كانت له جذور سياسية، فمحوره الأساس المرأة.

ومن أجل ذلك ارتبطت الأنوثة بالسياسة، ونفوذ الأقوياء، حتى ليظن الشاب المحروم أنها ما خلقت إلا لحفنة قليلة من الرجال على هذه الأرض.

يتذكر هشام أنه التقى يوماً وسط لندن فتاة عربية تمتهن الدعارة. كانت تجلس في مقهى عربي مع بعض الأصدقاء. وجدها تعرف عن مجتمعه ورجاله أكثر مما يعرف هو. وتعرف من شخصيات مجتمعه أكثر مما يعرف هو. وبكل مباهاة عرضت عليه أن لا يتوانى في الاتصال بها إن احتاج مساعدة في أي أمر.

تلك الساقطة تملك نفوذاً أقوى منه في وطنه، حيث الصلاة تلتصق بالصلاة، والمسجد يلتصق بالمسجد.

يا له من مجتمع طافح بالتناقض، يسجد فيه الرجال لأجساد النساء في الليل، ثم يرجمون تلك الأجساد ذاتها بلعنات الله في الصباح.

هذه الفاكهة المحرمة، إلا للنخبة، كانت دوماً جزءاً من لعبة الدين والسياسية. وبها تكتمل الثلاثية المحرمة: الدين والسياسية والمرأة.

بل هي أعمق من ذلك، حيث تراثنا نساء وجوارٍ، وبيع وشراء ما انتهى حتى اليوم.

بهذا الإرث المليء بالألوان الصارخة المتناقضة، بدأ هشام حياته في لندن. تصوروا أن رجلاً ذا خلفية ثقافية كهذه، يرأس مجلة نسائية.

توالى شريط الذكريات في رأس هشام ذاك الصباح البارد، وقد جلس إلى مكتبه الضخم يتأمل سقوط الثلج من وراء النافذة الكبيرة. يفرك يديه ويدور نصف دورة على مقعده الفخم، ويطالع كومة رسائل تجمّعت أمامه.

يرتشف قهوته بهدوء، وينظر إلى الهاتف.

يرتشف رشفة أخرى وعينه لا تزال على الهاتف.

هو ينتظر اتصالاً من فتاة إسبانية خلقت من ربيع الأندلس، اسمها إيزابيل. سمراء تبرق بشرتها من فرط نعومتها. لها قوام تتراقص على إيقاعه أشجار الهايد بارك، وشعر أطول من ليل لندن، وعينان أوسع من منابع التايمز. صورة حقيقية عن فينوس، إلهة الجمال.

التقاها صدفة، يوم أمس، في حفل سفارة عربية. كانت في عداد المدعوات بحكم دراستها الشرقية في جامعة ساوس SOAS، خلال

الحفل كان معها رجلان يختلس كل منهما النظر إلى قطعة من جسدها، ويجتهدان ما استطاعا في إغوائها بشكل لا يخلو من سخف. بعد قليل أصبحوا ثلاثة رجال أحدهم هشام.

ولكون الفتاة من المنتسبين إلى كلية للدراسات الشرقية، فقد تحول كل الرجال الثلاثة، في طرفة عين، إلى علماء في الدراسات الشرقية، دون أن يعرف أحدهم الفرق بين هارون الرشيد وماوتسي تونغ.

الظفر دوماً لمن أكثر صبراً ومثابرة، هكذا تعلم هشام في لندن. أن لا يفقد الرجل الأمل مع المرأة ولو كان حولها نصف رجال الأرض. وبقليل من البساطة، وشيء من الكذب سيصل إلى نتيجة.

ما إن أوشك الحفل على الانتهاء حتى تبادلت الحسناء رقم الهاتف مع هشام، مع وعد أن يساعدها، بحكم موقعه كرئيس تحرير مجلة نسائية، في الحصول على ما تريد من كتب ومراجع عن ثقافة المشرق العربي. وطالما أنها تحتاج إلى المساعدة، فتلك فرصة لدعوتها إلى الغداء، ثم دعوة أخرى إلى العشاء، وينتهي الأمر بأمسية ملأى بالآهات وحبات العرق.

بهذه الطريقة تخيل هشام السيناريو الكامل لعلاقته بإيزابيل، وهو يغادر مقر الحفل منتشياً بوعد أن تتصل به في اليوم التالي لتحدد ساعة اللقاء.

ينظر هشام إلى رسائل القرّاء على مكتبه، ويقتنص من حين إلى حين نظرة إلى الهاتف.

اقتربت الساعة من الثانية عشرة ظهراً وما سمع صوتها بعد.

اتصل هو، ولا جواب. عاود الاتصال، ولا جواب مرة أخرى.

«ربما هي مع رجل سبقني إليها». يا له من تفكير رجل حضاري يعيش في لندن ويتولى منصباً مرموقاً.

يرى المرأة، بكل بساطة، فاكهة قد يكون سبقه إليها رجل آخر.

ربما ليس ذنبه أن ورث ثقافة لا تجعل المرأة أكثر من لعاب ليل.

خلال انتظاره، تذكر وعده للحسناء الأندلسية بأن يساعدها في أبحاثها. لكن ماذا سيقدم أكثر مما تعلم هو في مدرسته وجامعته؟

لو علمت بما في رأسه ما أعطته رقم هاتفها. كانت دراسة إيزابيل حول مدى تأثر الثقافة الإسبانية الحديثة بثقافة المشرق العربي القديمة؟ حمار هو في ثقافة المشرق الحديثة، فكيف بالقديمة منها؟

هكذا كان يفكر هشام في الأندلسية السمراء وهو يفتح بعض الرسائل في مكتبه.

بين فترة وأخرى تدخل عليه سكرتيرته سوزي، وفي يدها كوب جديد من القهوة الساخنة.

فجأة يأتي اتصال كان آخر ما يتمناه هشام ذلك اليوم. مراسل من جريدة إنجليزية يطلب لقاءه. كان المراسل يطلب تعليقاً من هشام على تقرير إنجليزي نشر أخيراً حول دور رجال الشرطة العسكرية في المجتمع السعودي، أولئك الذين يعرفون باسم المطاوعة. ولكون هشام في هذا المنصب تحديداً، ولكون التقرير يتحدث عن تأثير هؤلاء المطاوعة على قرارات التحديث في السعودية، وخصوصاً المتعلقة بالمرأة، فقد حاول المراسل لقاء هشام دون كلل.

هشام كان يقابل عناد المراسل بعناد أكبر، فما الذي يستطيع أن يقوله؟ هل سيقول إن المطاوعة قد أضروا بسمعة المجتمع السعودي؟

هل سيقول إنهم أساءوا إلى الإسلام أكثر مما دافعوا عنه؟ هل سيقول إن السعوديين، وكل المسلمين على وجه الأرض، بريئون من هؤلاء؟ هل سيصدقه المراسل الإنجليزي؟

الأهم من كل ذلك ماذا سيقول هشام للمراسل لو سأله عن خلفية هؤلاء الثقافية؟

هل سيجرؤ على القول إن معظمهم حملة شهادات ابتدائية؟ بل هل سيجرؤ على القول إن بعضهم مجرمون سابقون؟

بلى. فقد قضى رجال منهم عقوبة السجن لأسباب بعضها أخلاقي، قبل أن يحفظوا قدراً من القرآن الكريم، كشرط لإطلاق سراحهم. ثم لا يلبثون أن يصبّوا جام سخطهم على المجتمع، في انتقام هزلي وعبثي.

أحاديث السعوديين أنفسهم عن المطاوعة تأخذ دوماً حيزاً من وقتهم. وكثيراً ما امتلأ الحديث بالسباب والملامة على المطاوعة ولا سيما المتطرفين منهم، ومعظمهم كذلك.

هشام وإن كان يتفق مع أصدقائه في بعض رأيهم، فقد كان يشفق أحياناً على المطاوعة أنفسهم. فهؤلاء أيضاً محرومون حتى من رحمة الله، بعد أن جعلوا من شروط طاعته الامتناع عن الضحك أو حتى الابتسام.

ربما هم مرضى، وربما هم أيضاً ضحايا؟

أياً يكن الأمر، ما استطاع هشام أن يواجه المراسل الإنجليزي. وإن كان قد وعده في لقاء سابق أن يساعده في كل ما يتعلق بالسعودية من شأن. لكن في غير هذا الموضوع. ليس المطاوعة. ليس عن الدين بأي حال.

في الاتصال الرابع من المراسل الإنجليزي، ذاك الصباح، اعتذر هشام إليه، بعد أن وجد نفسه مضطراً لمواجهته، لكنه ما أبدى سبباً للعذر. ربما أدرك المراسل الإنجليزي السبب أو خمّنه. لكنه قطعاً أصيب بخيبة أمل من هشام الذي كان يبدي الكثير من الجرأة في أحاديث بعيدة عن النشر، فإذا ما طلب إليه أن يعطي رأياً صريحاً تهرب، كأردأ ما يكون هروب الجبناء في ساحة قتال.

بعد أن أنهى حديثه مع المراسل وهو يشعر بطعم الهزيمة في فمه، عاد يطالع رسائل القرّاء التي أمامه، مركّزاً أكثر كمن يدفن رأسه خجلاً من موقفه مع المراسل الإنجليزي.

فجأة ينهض من مقعده ويدور في غرفته قليلاً، كثور مربوط إلى ساقية.

ومن جديد يعود إلى الرسائل يقرأها.

لم يكن سهلاً إخفاء صرخات النساء الصادرة من هذه الرسائل، كأرواح عالقة بين برزخين تبحث عن نهاية. لو قدّر للمراسل الإنجليزي أن يزور هشام ذاك الصباح وهو وسط رسائله، لسمع بنفسه تلك الصرخات.

فرئيس تحرير مجلة نسائية قد يكون الملاذ الأخير لامرأة تبحث عن مستمع تبكيه أحزانها وقد تجاهلها الجميع، ابتداءً بزوجها، حتى المطوع الذي يملك صلاحية الضرب بالعصا وإن كانت الضحية امرأة.

رئيس التحرير قد يكون الملاذ الأخير، أجل لكن هذا الرئيس يعجز عن منع ضربة عصا المطوع عنه هو نفسه.

أقصى ما يمكن أن يقوم به، لمن تكتب له شاكية، هو أن ينشر

رسالتها. وليته يفعل ذلك بأمانة. هي باختصار حالة قرف يصاب بها هشام من حين إلى حين عندما يحس وهو في موقعه أنه عاجز عن الكتابة عن مشاكل المجتمع الحقيقية. عاجز حتى عن الاعتراف بالخطأ، خوفاً من المس بالخطوط الحمراء في المجتمع؟ وما أكثر هذه الخطوط!

من تراه يصنع الخطوط الحمراء؟

ربما هو الرقيب، أو ربما هو الخوف الساكن في خوفنا.

لكن الرقيب موجود بالفعل. ذاك الذي يترك كل مصائب الدنيا ليراقب كلمة تنشر هنا أو هناك.

ثم فكر هشام متسائلاً ومستغرباً: «مضت فترة لم يتصل الرقيب محتجاً على موضوع ما. يبدو أنه شغل بمجلات أخرى وجرائد أخرى وكتب أخرى، وأحكام إعدام أخرى بحق آلاف الكلمات!».

اعتاد هشام اتصال الرقيب به من حين إلى آخر لا لشيء في معظم الأحيان سوى رغبة هذا الأخير في التذكير بأنه موجود.

لكن من قال إن هشاماً يحتاج إلى من يذكره بوجوده؟

وللتأكيد، سيتصل به الرقيب بعد ظهر اليوم، معاتباً بشدة على موضوع مضى على نشره أسبوعان تقريباً. كان الموضوع عن الخيانة الزوجية، ذاك الذي قرأته سارة، فأثار غضبها لسطحيته.

قال الرقيب محدّثاً هشام بحدّة عبر الهاتف:

ـ لماذا نشرتم هذا الموضوع؟ لقد سببتم إزعاجاً للوزير والوزارة.

أجاب هشام: وما علاقتنا بالوزير والوزارة؟

ـ ألا تعلم أن مثل هذه المواضيع تسبّب الكثير من المشاكل، ونحن مجتمع محافظ لا يعرف هذه الترّهات؟ هل تعتقد أنك تكتب لمجتمع

أوروبي أو أميركي؟ نحن مجتمع محافظ. والخيانات التي تتحدث عنها لا نعرفها، ليست موجودة لدينا. ربما هي في مكان آخر، لكنها ليست في مجتمعنا السعودي الإسلامي.

ـ الموضوع الذي نشرناه لا يتحدث عنا وحدنا. هو يتحدث عن ظاهرة موجودة في كل مجتمع. ونشر الموضوع لا يكشف مستوراً بقدر ما يعالج خطأً. كل صحف العالم تنشر ما هو أكثر من ذلك، سواء في أوروبا التي ذكرت، أو حتى في الدول المجاورة.

ـ لكل مجتمع خصوصيته، وأنت تعلم خصوصية مجتمعنا.

ـ أعلمها تماماً، وأعلم أننا لسنا مجتمعاً مثالياً. لدينا من المشاكل ما لدى غيرنا. لا يمكن أن نبقى مدفونين وراء هذه الخصوصية.

ـ أعتقد أنه كان بالإمكان اتباع أسلوب أفضل في نشركم التحقيق. وإن كنت أرى أنه ما كانت هناك حاجة أصلاً إلى نشر موضوع كهذا.

«ماذا يريد هذا الرقيب أأكتب أننا أمة لا تكف عن الصلاة والدعاء للآخرين بالسعادة والمحبة، أأكتب أن الفضيلة تغطينا من رأسنا حتى أخمص قدمينا؟» تساءل هشام في سره، قبل أن يعود إلى الرقيب.

ـ الموضوع المنشور أساساً لا يتحدث عن قصص واقعية بقدر ما يتحدث عن عموميات. لقد كان النشر سطحياً إلى أبعد حد.

ـ إن كان سطحياً فلم نشرتموه إذاً؟

تمنى هشام، حينذاك، لو كان الموضوع أكثر قوة وجرأة. وليغضب الرقيب كما شاء. فهو لن يرضى في كلا الحالتين.

بعد أن انتهت المحادثة، أعاد هشام كرسيه إلى الوراء وهو يفكر في توقيت اتصال الرقيب.

فالموضوع الذي يعترض عليه قد نشر منذ أسبوعين، فلماذا اتصل الآن، ولماذا لم يتصل في يوم النشر نفسه؟

ما وجد لسؤاله من جواب سوى أن الشكوى لم تأتِ من الرقيب ذاته، بل هو مجرد ناقل لشكوى آخرين. هؤلاء الآخرون هم ربما مجموعة أشخاص، تكاثرت أصواتها على طاولة الرقيب، قبل أن تزعق على لسانه.

ليس مهماً إن كانت شكوى الرقيب اجتهاداً منه، أو هي غضبة متشددين. المهم أن الرقيب، وهو صوت المجتمع وضميره، اعترض على التحقيق المنشور، بل ثار عليه.

شيء واحد يعلمه هشام تماماً، أن الرقيب لم يقرأ كلمة واحدة مما نشر، فمن قال إنه يقرأ؟

يعلم هشام أن تحقيقه عن الخيانة ليس خطراً ولا يكشف جديداً، ولا هو بخارج على أعراف المجتمع. ربما هو مختلف قليلاً، لكنه ضعيف ويفتقر إلى الجرأة بكل معانيها.

لماذا اتصل الرقيب إذاً؟

«يهدف الرقيب إلى أمرين»، كما استنتج هشام.

أولاً: تقصّي ما إذا كانت هناك مؤامرة دولية أو صهيونية أو من الفضاء، هدفها زعزعة إيمان الأمة ومحاربة إسلامها وثقافتها. فافتراض عداء الآخرين لنا لا مجال للشك فيه، كما يعتقد الرقيب على الأقل.

ثانياً: تهديد مبطن من الرقيب لهشام باللجوء إلى القانون إن تم تجاوز الخطوط الحمراء مرة أخرى. لكن هل هناك في العالم ما يمكن أن يجمع بين ذاك الثلاثي العجيب: القانون والصحافة والخطوط الحمراء؟ حتى وإن لم يوجد، فقد أصبح الآن موجوداً. هذه هي الرسالة التي يريد الرقيب إيصالها إلى هشام وغيره. إذاً ليس هشام وحده المعني فقط، بل كل زملائه الآخرين.

تساءل هشام هل هؤلاء الآخرون يتصرفون مثله؟

لكنه هو لم يفعل شيئاً، ولم يقل للرقيب ما يستحق الاعتبار. لعل هذا في حد ذاته تصرف ولو على نحو انهزامي. وذاك بالمثل جزء من انهزام الرقيب أمام نفسه. فإذا كان الرقيب مهزوماً، والكاتب مهزوماً، فمن أين يأتي الانتصار؟

خيّل إلى هشام منذ ذلك الصباح أنه بات جيفة تعفنت على كرسي وثير وقذر في آنٍ.

جيفة كتلك التي تخرج من قبرها في أفلام الرعب فتتحرك على غير هدى وبلا إرادة، وهذا ما يمثله هشام والآخرون. أو كجيفة تتحرك وفق توجهات مخرج اعتاد التعامل مع الموتى الأحياء، وذاك هو الرقيب

ينظر هشام إلى سوزي التي تدخل عليه وهو شارد الأفكار، يشتمّ رائحة عفن قد أحاطت بقلم كان يمسك به. تخبره سوزي أن لديه موعداً مع ضيوف سيأتون لزيارته في الثانية بعد الظهر.

يتصنّع ابتسامة لها، ويسأل في صمت: ألم تتصل إيزابيل؟

يعود إلى رسائله، يفتحها واحدة تلو أخرى.

أحياناً كان يترك بعض الرسائل حتى نهاية اليوم. وفي معظم الأحيان كان يدفع بالرزمة كاملة إلى زميلة تتولى متابعتها والرد عليها.

إسمها نادية. سيدة لطيفة، وصاحبة خبرة إعلامية وأدبية لا يستهان بها. وقد أضافت أخيراً خبرة متابعة الرسائل وتحليلها بشكل قل مثيله.

«أعطني الرسائل الغريبة فقط». يقول لها كل مرة يدفع إليها هشام بالرسائل حيث يتشابه معظمها، إذ نادراً ما حملت جديداً.

الرسائل التي كانت تهمه، هي تلك التي تقدم فكرة ما، أو تنتقد موضوعاً محدداً، أو تحمل طلباً استثنائياً.

كان عدد الرسائل الأسبوعية يفوق الخمسمائة رسالة في بعض الأحيان. وكان لبعض مقالاته التي يكتبها في الصفحة الأخيرة، عن النساء، دور في زيادة حجم ما هو مرسل إليه شخصياً.

كانت مقالته، التي يتعاطف فيها مع المرأة، ملأى هي الأخرى بعبارات التورية والحذر. برغم ذلك لم ينج من الانتقادات، وأحياناً يا للغرابة، من نساء اعتدن أن يعشن خاضعات، بل يرفضن حتى أن تكون لهن حقوق البشر.

في أكثر من مقال، وفي أكثر من لقاء إعلامي، كان هشام يواجه بسيل من الاتهامات الرجالية والنسائية عندما يتحدّث مدافعاً عن حقوق النساء في العالم العربي، والسعودية تحديداً.

كان يتفهم جيداً غضبة الرجال، لكن ما كان يحيره غضبة النساء من رجل يدافع عن وضعهن البائس.

كان هشام يرى أن هناك قناعة لدى المرأة المسلمة، والسعودية تحديداً، أن الإسلام كرّمها بأن جعل المسؤولية والعبء الكامل على الرجل، ولو أتى ذلك على حساب حريتها وحقوقها الإنسانية.

لا يعرف هشام أية قدرة شيطانية استطاعت أن تقنع هؤلاء النسوة بأنهن الأفضل وهن أسوأ حالاً من نساء ما قبل التاريخ.

كثيرات هن كذلك وكثيراً ما بحث هشام عن السبب، فما وجد أكثر من تفسير واحد:

إن المرأة السعودية، ومنذ سنواتها الأولى، تعرضت لأكبر عملية غسل لعقل إنسان عرفتها البشرية. فأصبحت بدلاً من أن تدافع عن حقوقها في المساواة والعدل، تتلذّذ بدور الضحية.

قال هشام في لقاء تلفزيوني: إن أردنا أن نستشهد بالإسلام، فسنجد أن التاريخ خاطئ وتفسيرنا للإسلام نفسه خاطئ.

الإسلام كالأديان الأخرى، أتى ليعزّز مكانة الإنسان بصفة عامة، أكان رجلاً أو امرأة.

وإن شئنا الحقيقة، فإن وضع المرأة قبل الإسلام يبدو أفضل منه بعد الإسلام، ليس بسبب الإسلام ذاته، وإنما بسبب ما أعطاه من حقوق للرجل أساء استغلالها. بل إنه تعسّف في استخدامها ضد المرأة. والغريب أن المرأة ارتضت ذلك، حتى اعتادت أن تكون ضحية، ثم تحول التعود إلى استلذاذ بدور الضحية.

عندما قال هشام ذلك في حواره التلفزيوني على الهواء مباشرة، أتت النتيجة كما توقع تماماً: هجوم عنيف من النساء السعوديات تحديداً، باختصار: استلذاذ نسائي كامل بدور الضحية.

مذاك أبدى هشام الكثير من الحذر في كل ما كتب بعد ذلك. فهو لا يريد غضبة رقيب، ولا ثورة امرأة أو رجل يرفض كلاهما الحديث عن حقوق المرأة، أو الاعتراف بها.

برغم كل هذا الحذر لم ينج هشام من الانتقادات أيضاً. «عماذا أكتب إذاً أعن المطبخ، أم عن وصفة أم علي؟» كان يتساءل كل مرة أمسك قلمه.

ذاك الصباح، وبعد اتصال الرقيب به، وغياب صوت إيزابيل، ما كان هشام في مزاج يتيح له قراءة أكثر من رسالة أو اثنتين، فدفع بالباقي إلى زميلته ناديا، المختصة بالرسائل.

في الثانية بعد الظهر كان موعده مع ضيوف أتوا في موعدهم. استقبلهم في مكتبه، قبل أن يدعوهم إلى الغداء في مطعم يوناني مجاور.

على الغداء، دار حديث عن الصحافة والمجتمع والعلاقة بين الإثنين.

تخيلوا أنتم ماذا يمكن أن يقول؟

كذب هشام، ليس مرة واحدة، بل عشر مرات على الأقل أثناء تناول الغداء. «لا بأس بعشر كذبات في يوم واحد، أو حتى غداء واحد!» قال في سره مبتسماً.

تعلم هشام أن الكذب في بعض المواقف الإعلامية مبرر أحياناً، بل مطلوب. وليته فعل الشيء ذاته مع الرقيب الذي لا يزال صدى صوته يصمّ أذنيه.

«لكن الرقيب يكذب على نفسه وعلى مجتمعه فكيف يمكن الكذب على كذّاب؟» تساءل أيضاً.

برغم الطعام الشهي، فقد كان حديث الضيوف في مجمله مملاً. حتى النادل أندرياس الذي لا يفهم العربية شعر بالضجر.

أثناء الغداء اكتشف هشام أنه ليس مهماً أن نكون جهلة أو علماء، المهم هو كيف نظهر ذلك للآخرين. وقد بدا للآخرين تائهاً فيما هو يفكر في الرقيب تارة، وفي إيزابيل تارة أخرى. فبدا جاهلاً بما يدور من حوله.

في المكتب، وبعد أن ودّع ضيوفه، سأل هل من رسالة أو اتصال؟

«مكالمتان فقط»، أجابته سوزي ولكن ليس من الحسناء الإسبانية.

«راحت علينا هذه الليلة» قال في سره.

طلب كأساً من الشاي الأخضر.

«من دون سكر لو سمحت». قال لسوزي مؤكّداً.

جلس إلى مكتبه وصوت الرقيب لا يزال يطنّ في أذنيه، حتى ليكاد يسمعه ويراه.

مع اقتراب السادسة اجتمع هشام بأسرة التحرير، يناقش مع أفرادها ما سينشر في العدد القادم. هو لقاء اعتاده مرة أو اثنتين في الأسبوع. أحياناً من باب التواصل مع الزملاء، ليس إلا.

في اجتماع ذلك اليوم تعددت الآراء حول غلاف العدد القادم، ونصف عقل هشام مشغول بإيزابيل، والنصف الثاني يفكر أين سيقضي أمسيته هذه الليلة؟

ارتجف فجأة وهو يلمح بين طاقم التحرير وجهاً يعرفه، إنه وجه الرقيب الذي اتصل به هذا الصباح، لكن أحداً من الزملاء لم يره.

تبادل وإياه نظرة لا يعرف أكانت عن تحدٍ أو تهكم، ثم أشاح بوجهه عنه وقد زمّ حاجبيه ناحية ناديا، الزميلة المكلفة بمتابعة الرسائل يسألها ما الجديد لديها؟

- لا جديد يا للأسف. قالت.

- ولا فكرة واحدة؟

- إطلاقاً.

صمت هشام لحظة ثم سأل:

ـ ماذا لو كتبنا عن الليلة الأولى في حياة الزوجين؟

ـ أعتقد أنه سبق طرح الموضوع في إحدى المجلات المنافسة. قال زميل في الاجتماع.

ردّ عليه هشام: «يمكننا إعداد موضوع آخر بطريقتنا الخاصة. الموضوع مقروء، وحبّذا لو أنعمت علينا مكاتبنا بمادة مشوقة وجريئة».

قال ذلك وهو غير متأكد إن كان سيجيز نشر أي قدر من الجرأة. هو مقتنع بأن للموضوع جمهوراً وقرّاء، والزملاء مقتنعون، لكن من سيقنع الرقيب بمجازر الليلة الأولى وهو الذي يرفض الاعتراف بوجود خيانة زوجية في مجتمع إسلامي؟

يغير هشام رأيه فجأة ويطرح فكرة ثانية، وثالثة، ورابعة. ثم ينهي الاجتماع أخيراً بالاتفاق على اختيار موضوع غلاف هو غاية في الأهمية: «أين تذهبين هذا الصيف؟».

كان الثلج في الخارج قد توقف منذ ساعة، والنهار القصير في شتاء لندن قد رحل منذ أكثر من ثلاث ساعات. إنه المساء الذي يفرّق الزملاء ويجمع الأصدقاء.

الساعة تقترب من السابعة، وهشام جالس إلى مكتبه يراجع بعض الصفحات قبل طبعتها الأخيرة ثم يخرج لرؤية أصدقائه.

عين على الأوراق، وأخرى على الرقيب الذي ما غادر موقعه منذ اجتماع المساء، أو الأحرى، منذ اتصال الصباح.

منذ ذلك الوقت، والرقيب حاضر دوماً في مكتب هشام ومخيلته. أحياناً ينتقل للسكن في أفكاره، أو في بعض أدراج مكتبه، أو حتى في

داره. لكن يمكن رؤيته، على الأغلب، جالساً إلى طاولة الاجتماعات يراقب ما يدور، دون أن يشعر بوجوده أحد سوى هشام.

«ألا يتعب الرقيب أبداً، ألا يمل؟».

لم يبق ذلك اليوم في المكتب سوى هشام ورقيبه، ودفعة جديدة من الرسائل الواردة تواً، كانت هي آخر ما قدمته له سوزي ذلك اليوم.

قام من مكتبه، وحمل معطفه هاماً بالانصراف.

قبل أن يغادر ألقى نظرة أخيرة على الرسائل التي تدثّر بعضها ببعض على سطح مكتبه.

نظر إلى ساعته، وقدّر أن أمامه ربع ساعة قبل أن يلتقي أصدقاءه في الحانة المجاورة.

ألقى بالمعطف على كرسي مجاور، وجلس يفتح الرسالة الأولى. قرأها سريعاً فكانت تشبه ألف رسالة سبقتها. ثم فتح الرسالة الثانية، فكانت تشبه الأولى. ثم فتح الثالثة، فالرابعة.

الرسالة الخامسة بدت متميزة قليلاً، وقد كتب عليها من الخارج «تُسلّم لرئيس التحرير شخصياً».

كانت الرسالة من صفحة واحدة بخط صغير. طالع نهايتها قبل البدء بقراءتها. في أسفل الصفحة وجد اسم المرسلة «سارة» من السعودية. أما الرسالة فقد بدأت هكذا: «رداً على ما نشرته مجلتكم عن الخيانة الزوجية».

تأفف هشام وقال: «ألم نته من القصة بعد؟».

من يقتضي عمله أن يقرأ عشر ساعات كل يوم، لا يجد الكثير من المتعة بعدها في قراءة أي شيء. برغم ذلك توقف هشام عند رسالة سارة يقلّبها، متأففاً من مضمونها الذي تسبّب له منذ الصباح بوجع رأس لا يزال يحمله بين صدغيه.

لسبب ما، استحسن قراءة بعض أسطر الرسالة قبل أن يلتقي أصدقاءه في حانة مجاورة بعد ربع ساعة.

فجأة اعتدل في جلسته، وبرقت عيناه، وأمسك بالرسالة بكلتا يديه.

في لحظة، أدرك قيمة شيء ما في الرسالة. هو ليس مضمونها، بل شيء آخر.

بدأت رسالة سارة هكذا:

«رداً على ما نشرته مجلتكم عن الخيانة الزوجية، فقد أحببت أن أشارك برأي علّ فيه شيئاً من فائدة.

أنا سيدة سعودية في العقد الثالث من العمر، على قدر من الجمال، ومن أسرة جيدة...».

هذه كانت قيمة الرسالة لهشام، أن صاحبتها «على قدر من الجمال»، لا أكثر ولا أقل.

في لحظة نسي إيزابيل واتصالها الذي لم يأتِ.

فالجمال الذي تحطمت على جسده سفن الرومان ورماح الفرس

وصهيل جياد العرب، يأتيه وهو على مقعده في لندن، شاكياً، ومستجيراً.

وعندما يأتي الجمال بلا استئذان يصبح أكثر جمالاً.

وها قد أتت سارة دونما استئذان. ولولا أنها «على قدر من الجمال»، لدفنت رسالتها دون صلاة وسط آلاف الرسائل.

«... هنا تحديداً ينتصر الظلم على العدل!».

قال هشام يحادث نفسه قبل أن يواصل القراءة: عين على الرسالة، وأخرى على الرقيب الجالس إلى مقعده يختلس النظر إلى ما في يد هشام، بنصف عين ونصف عقل.

كمن يخاطبه، قال هشام: «تريدني أن أصبح عامل نظافة بقلمي، أن أغسل الناس من خطاياهم، ثم تصرخ معاتباً رافضاً الحقيقة.

كلنا خائفون، أنا وأنت. كلنا خائفون؟».

في يقظة ضمير عارضة سأل نفسه وهو ينظر إلى رسالة سارة بين يديه: «أليست هي خيانة للأمانة الصحافية أن تحتل رسالة ما أهمية استثنائية لأن صاحبتها امرأة جميلة؟».

«لكن، عفواً، أية أمانة صحافية؟» سأل وهو ينظر تجاه الرقيب.

«أين هي الأمانة في مقالات تخضع لقوانين الرقيب. أين هي الأمانة في كلمات امتلأت برائحة الكذب الصريح على البسطاء؟»

«إن كنت خائناً للأمانة الصحافية، فلست وحدي الخائن، إذاً الساكت عن الحق خائن. الساكت عن الظلم خائن. الجبان خائن. وكل من أعطى الحق لامرأة جميلة دون غيرها خائن. كلنا خائنون إذاً، ومن كلنا تنبع رائحة النتن!».

وأضاف يخاطب نفسه، وقد استعذب نقده لذاته وللرقيب والنتانة: «عندما نقول إن الجمال في الروح والعقل والأخلاق، فنحن أيضاً خائنون، ونتنون. فالجمال الذي نقدسه هو الشكل فقط، ولو سكنته روح شيطان وعقل شيطان وأخلاق شيطان. تراثنا الذي صنعته آهات الجميلات، هو أيضاً نتن. كله يبدأ هكذا: «وبينما الأمير يتفقد ضيعته، رأى فتاة أسقطه جمالها عن حصانه».

في كتاب آخر تقرأ: «وعندما كان الخليفة في مجلسه دخلت عليه جارية ما رأى مثل حسنها، فوهبها ألف ألف دينار». على حساب الفقراء والجياع.

أو تقرأ: «بينما الأعرابي يطوف على ظهر جمله، سمع صوتاً شجياً فاقترب منه، فإذا الصوت لحورية قد انشطر سنام الجمل من فرط حسنها» حتى الجمل أصبح شهوانياً في تراثنا.

يا له من تراث مكتوب بجدائل النساء، ولعاب الخليلات والجواري.

تراثنا ليس أكثر من امرأة جميلة. أو يجب أن تكون جميلة.

لو كانت للخنساء عينا الغنم لا البقر لما سمع بها أحد ولو كان لولّادة المستكفي جمال أم كلثوم ما خلّدها ابن زيدون.

وما شفع لأم كلثوم سوى جمال صوتها، أما شكلها فلا شفيع له إلا الله تعالى.

قلب هشام الرسالة في يده وهو يفكّر كيف لا يفهم الغرب ما تعنيه المرأة للرجل العربي؟ كيف لا يدرك أنها هي الساكنة دوماً في عقولنا، وعقولنا ساكنة بين أفخاذنا؟!

«لأن المرأة هي الفاكهة المحرّمة إلا على المقتدرين. ولأنها هدية الإله للصالحين في الجنة».

لكن ماذا عن هدية النساء في الجنة؟ تساءل هشام وهو ينظر من نافذته إلى بعض ندف الثلج المتساقط في ظلمة الليل.

«للرجال الحور العين، فماذا سيكون للنساء يا ترى؟».

من يهتم؟

«الحور العين، الحور العين. من عطشنا إلى النساء، تستلهم الجنة هيبتها».

قال في نفسه وهو لا يزال يقلّب الرسالة وينظر إلى النافذة.

في داخله تتردد كلمات لنزار قباني، الشاعر الكبير الذي كان قد التقاه قبل يومين فقط وهو يسير حزيناً في شارع البيكاديللي. رآه يبكي فراق صديقه الشاعر العراقي بلند الحيدري:

«متصوّفٌ...؟

أنا آخر المتصوّفينْ

أنا لست يا قدّيستي الربّ الذي تتخيلينْ...

رجل أنا كالآخرينْ.

بطهارتي بنذالتي...

رجل أنا كالآخرينْ

فيه مزايا الأنبياءِ،

وفيه كفرُ الكافرينْ!».

«كلنا نزار وإن رميناه بألف حجر!» قال هشام وهو يتمتم في سره ويلعن الحجر.

يعود إلى رسالته يتأملها ويشد على أطرافها بين يديه حتى لتكاد تتمزق، ويسأل نفسه:

«ما الفرق إن كانت القارئة على قدر من الجمال أو القبح؟».

إنه الأمل.

التواصل مع أنثى جميلة يخلق نوعاً من أمل الوصول.

تعجز الحضارة أحياناً عن تشذيب الإنسان. تعجز عن تشذيب رجل واحد يرى لذة العالم في اللهاث فوق أنثى.

يذكره ذلك بعبارة للكاتب البرازيلي جورج أمادو: «الإنسان البدائي لا يزال يعيش في داخلنا، لكنه في مكان بعيد لا تصل إليه إرادتنا في التغيير».

كيف يمكن لعام أو عشرة أعوام يعيشها الإنسان في الغرب أن تغير إرثاً يسبح في دمائنا، بكل أخطائه ووثنيته؟

نعم وثنيته التي تجعل من العرف والتقليد إلهاً يدفع كل يوم برأس جديد إلى المقصلة!

مرّت ربع ساعة وهشام يفكر وقد نسي أصدقاءه الذين ينتظرونه كعادتهم كل مساء.

قاطعوه الأصدقاء باتصالاتهم، فطلب أن يسبقوه إلى الحانة، على أن يلحق بهم بعد أن يفرغ من لون البنفسج الذي كسيت به الرسالة التي بين يديه.

الخط الرقيق، والورق المسطّر، والوردة المطبوعة على ركن من الورقة، كل ذلك يجعل لمذاق الرسالة طعماً مختلفاً.

أجمال سارة ما جعله يدرك ذلك، أم هو الموضوع؟

للحظة، حاول الفصل بين تلك التي هي على قدر من الجمال، والرسالة.

فأعاد قراءة مطلعها، واضعاً إبهامه على عبارة «قدر من الجمال».

... فاحترقت إبهامه!

توقّف عن القراءة متأملاً إبهامه المحترقة كطفل صغير، وعاد يقرأ من جديد:

«رداً على ما نشرته مجلتكم عن الخيانة الزوجية، فقد أحببت أن أشارك برأي علّ فيه شيئاً من فائدة...

أنا سيدة في العقد الثالث من العمر (...)، ومن أسرة جيدة. أبتاع مجلتكم كل أسبوع منذ طفولتي. كنت أحب أن أكتب لكم عن مواضيع سبق أن طرحتموها، لكن انشغالات الحياة حالت دون ذلك.

تابعت كثيراً ما نشرتموه من تحقيقات وما كتبتموه أنتم شخصياً عن المرأة وأنتم تدافعون عنها، وتقولون إن دورها أخطر من أن تكون قطعة يستلذها الرجال، وأن الدين يكرمها ويحميها.

لكني صدمت وقد رأيتكم تخالفون ذلك في تحقيقاتكم الصحافية، حيث نصبح مجرد امرأة للذة، بلا إرادة أو شخصية.

أرى ذلك تزييفاً كبيراً للحقائق. ولعل قمة ما جسدتموه من تزييف كان في تحقيقكم الذي أشرتم إليه عن الخيانة الزوجية في المجتمع السعودي، وما ذكرتموه من أنه جريء ويقدّم حقائق وأرقاماً تكشف للمرة الأولى. أين هي الحقيقة في ما نشرتم؟ وما هي المعلومات الجديدة التي قدمتموها؟ بل أين هي الخيانة أصلاً في موضوعكم عن الخيانة الزوجية؟

خفتم من الاعتراف بالخطأ، وأنكرتم وجود الخطيئة في مجتمعنا المحافظ.

حسناً، إذهبوا إلى المحاكم واسألوا عن البيوت التي خربت بسبب الخيانة في هذا المجتمع المحافظ.

أدخلوا السجون، اسألوا المراكز الاجتماعية، اسألوا أهل الاختصاص والعارفين بالأسرار، تجدوا أن الخيانة أخطر مما تعتقدون، وأبعد مما تكتبون.

أنتم لا تعلمون أسرار البيوت، وأسرار الخادمات في البيوت، وأسرار السائقين والخدم مع ربّات البيوت.

تكذبون على قرائكم وتقولون: «تحقيق جريء يكشف معلومات جديدة للمرة الأولى عن الخيانة الزوجية». ثم لا نجد معلومة تستحق أن نقرأها، إذ تنكرون أن العلة موجودة في مجتمعنا، بل هي متفشية في المجتمعات الغربية وحدها.

لا أكتب لكم من أجل ذلك فقط. لا أكتب كي أقول إن الخيانة موجودة برغم أنفك وأنفنا.

بل أكتب، وقد تجاوزت عقدة الاعتراف بالخطأ، كي أطلب إليكم أن تبحثوا عن الأسباب.

فليست الخيانة هي المشكلة، بل إخفاء أسبابها هو المشكلة.

فما أراه وأنا الزوجة والأم، أن الخيانة ليست جسداً يخون الجسد. بل تلك نتيجة لا أكثر.

الخيانة الحقيقية تكمن في السبب الذي يدفع إلى فعل الخيانة، لا الخيانة ذاتها، ولا الفعل ذاته.

الخيانة ليست هي فعل الخطيئة، بل هي السبب الذي يقود إلى هذه الخطيئة.

فلماذا لا تعترفون بها؟

ألم يكن ذلك أولى من أن تنكروا ما بات داءً مستشرياً بيننا برغم إسلامنا ومحافظتنا؟ نعم، هو داء مستشرٍ بيننا، ولن نفلح في العلاج إن لم نعترف بالخطأ.

لن تخفوا الحقيقة، لكنكم قادرون، إن كنتم أمناء، على البحث عن الأسباب. وهذا دوركم وواجبكم. انزلوا من علياء صحافتكم الهشة إلى الشارع، وانظروا إلى ما يدور في الأسفل.

ابحثوا بلا خوف في طرقاتنا المعتمة. التقوا نساءنا واسمعوا الحقيقة وانشروها كما هي، إن أردتم الإصلاح وأخلصتم النية.

تحقيقكم الهش عن الخيانة الزوجية كشف ضعف إدراككم لما في مجتمعنا من داء. كشف عن صمتكم على قذارة تزحف بقوة على ثيابنا البيضاء.

إن أردتم أن تروا الخيانة فابحثوا حيث ينبغي البحث، ولا تقولوا إننا بلا خطيئة. فإن كانت الخيانة مصيبة، فالسكوت عن سببها مصيبة أعظم.

وما المخطئ اليوم سوى صمتكم. يجب أن نعترف أننا اليوم كلٌّ يتخبط بين الطهر والدنس.

ربما لا تعرفون، أو لا تريدون أن تعرفوا، كم تتجاور سُبُحات الصلاة في حقائب نسائنا مع حبوب منع الحمل، كما تتجاور في جيوب الرجال أعواد السواك مع الواقي الذكري.

هل تريد تناقضاً أعظم من ذلك؟

التناقض نفسه نتيجة، فأين هو السبب؟

في بيوتنا آلاف النساء مثلي، تداعبهن أصوات الخيانة كل يوم، وهن نائمات أو يتأهبن للصلاة. كلنا ننتظر أملاً قد لا يأتي، أو خطيئة لا نعرف متى ستلتقطنا بنابيها، وقد تهيأت لنا الأسباب.

أنتم لا ترون ما نراه نحن الساكنات وراء سوادنا، ولا ترون كم من الأسباب تدفعنا إلى الخيانة من وراء غطائنا.

لسنا ناقصات عقل ودين، بل أرواح في أجساد ضامرة من العطش إلى لذة حرمت منها ظلماً.

لكن أنّى تعرفون ذلك في عتمة الحضارة التي تعيشون فيها؟

لكل إنسان تجربته، ولي تجربتي، ولكل صديقاتي. ولن أضيف جديداً لو قلت إن الخيانة قد هدمت من البيوت أكثر مما تظنون. وأن في ما بقي من البيوت الواقفة نساء متكسرات أكبر من قدرتكم على عد شظاياهن المتناثرة في كل مكان.

قد تكون هذه أول مرة أكتب فيها رسالة لمجلة أو لرجل إعلام، وربما تكون الأخيرة، لكني أحببت أن أكتب لمن وضعت ثقتي به دوماً، ولا اتمنى أن يخيب الظن به.

أرجو أن لا أكون قد أطلت. لكني حاولت أن أوضح ما خفي عنكم. ولكم نشر رسالتي إن ارتأيتم ذلك، أو أن تغضوا النظر عنها. لكن اعلموا أنكم تحملون أمانة من الله، فأدوا الأمانة على أكمل وجه، واتقوا الله في عملكم.

ولكم خالص التحية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ سارة».

استغرقت قراءة الرسالة أكثر من ربع ساعة، ويا لها من ختام حار لهذا النهار.

بالنسبة إلى رسائل القرّاء، يطمح كل رئيس تحرير إلى قراءة ما يرضي غروره من مديح وإطراء، سواء لما يكتبه هو أو لما ينشر في مجلته.

حتى أولئك الذين يدّعون أن صدورهم رحبة لتقبل الرأي الآخر، تزعجهم كثيراً تلك الرسائل التي لا تتفق مع رأيهم، ولن يكون هشام استثناء.

التواصل عبر الرسائل بين القرّاء وكتّابهم ليس مسألة شائعة في أدبيات الصحافة السعودية أو العربية بصفة عامة. ذلك أن الكتّاب يرون أنفسهم دوماً فوق المجتمع، وتحت عرش الله بقليل.

وهشام هو مزيج من كل ذلك.

لكن إذا كان هشام صورة نمطية متكررة لكل رؤساء التحرير الآخرين، المتعالين والمسكونين بالخوف، فإن سارة تختلف عن كل القارئات اللواتي تتوالى رسائلهن بالعشرات إلى مكتب هشام كل يوم. فقد اعتاد هذا الأخير نوعين من الرسائل: إما ما يدينه بسبب مجمل مجلته، وإما ما يدينه بسبب تشجيعه المرأة على رفض الظلم وحثها على المطالبة بمساواتها مع الرجل.

رسالة سارة كانت من النموذج الأول الذي يغرد خارج السرب. بل ويسير في اتجاه ما كان هشام يعرف بوجوده أساساً في مجتمع ينتمي هو إليه أيضاً.

الثلج لا يزال يتساقط وراء النافذة وسط الظلام، وهشام يضع رأسه على راحة يده وهو يفكر كيف تلتقي رسالة سارة القوية والجريئة مع احتجاج الرقيب في يوم واحد؟

الرقيب غاضب من نشر موضوع عن الخيانة الزوجية لأنه يرفض الاعتراف بوجودها في مجتمع إسلامي. وسارة غاضبة من نشر موضوع سطحي وتعمده إخفاء الحقائق في هذا المجتمع الإسلامي.

التناقضات التي هرب منها هشام تطارده إلى لندن، فتلتقي الأضداد على مكتبه.

من المخطئ؟

من المصيب؟

سارة أم الرقيب؟

يرفع هشام نظره إلى الرقيب الذي يتراءى له جالساً قبالته. ينهض ويضع أمامه رسالة سارة.

ثم يلتقط معطفه ويطفئ الضوء ويغادر.

يعود بعد لحظة ويشعل الضوء من جديد، كي لا يبقى الرقيب في ظلمته ويقرأ الرسالة التي أمامه.

ومن جديد يغادر هشام إلى أصدقائه.

شيء واحد تمناه تلك اللحظة، لو أن إيزابيل معه هذا المساء.

من كل كلمات السخط التي سطرتها سارة في رسالتها، لم يتبق في ذهن هشام سوى تخيّل جمال سارة نفسها، ونقطة أخرى هي قولها: «لي تجربتي».

تساءل هشام: هل قصدت أن لها تجربة مع الخيانة؟ كيف، ومع من؟ ليس هو الفضول ما يحرّك هشام، بل هو الأمل مرة أخرى. ففي رأيه أن من تخون مرة ستخون دائماً. وقد يأتي دوره يوماً، ولو كان في لندن.

لعل الأمر يبدو جلياً الآن، أن العفن الفكري تصعب إزالته في بضع سنين. ذلك ما يعكس بوضوح أفكار هشام. ولو عرفت سارة أنه يفكر على هذا النحو، ربما ما كتبت إليه.

برغم أن سارة أخفت هويتها، إلا أن رسالتها كشفت عن جرأة كبيرة. وربما ما كانت لتتردد في كشف الكثير عن نفسها، لو كانت متأكدة أن رئيس التحرير سيأخذ رسالتها على محمل الجد، ويحاول من خلال موقعه أن يكون على القدر نفسه من الجرأة والمسؤولية.

سارة أثبتت أن المرأة غالباً ما تكون أكثر قوة أمام الصعاب والضغوط النفسية التي تتعرض لها، من قدرة الرجل على تحمل ذلك حتى رئيس التحرير نفسه.

لكن المرأة لا تكشف عن قوتها وقدرتها على التغيير إلا عندما تبلغ ثورتها حداً يصعب تجاهله.

لكن كيف تعريف «القدرة على التغيير» في مجتمع هادئ بطبعه؟ وكيف يمكن للمرأة أن تعبّر عن ثورتها في مجتمع يرفض الأصوات العالية؟

يبدو السؤال محرّماً وممنوعاً، وربما يتطلب زمناً للصفح عنه. لكن المشكلة أن الرجال، في معظم الأحيان، لا يرون عمق البحر. وكثيراً ما ماتت الأمواج الغاضبة في رحلتها إلى السطح.

فلا ترى على صفحة الماء سوى دوائر خفيفة، كشاهد قبر على ثورة ميّتة.

غير أن الحرية نفسها لا تموت، فهي خالدة وأبدية، لكنها ستتطلب زمناً آخر كي تصل إلى السطح.

لم يكن هشام يتوقف كثيراً عند رسائل القرّاء. ومعظمها لا يعلق بذهنه. لكن منذ مساء البارحة، غدت سارة تشغل عقله، حتى مع كأس المساء الثالثة.

في طريقه صباح اليوم التالي إلى مكتبه، عبر مسار مختلف ليس في محاذاة النهر والنورس، تزاحمت الأسئلة في رأس هشام وهو يسير على الطرقات الحجرية العتيقة، وسط بيوت بني بعضها منذ أكثر من ٥٠٠ عام.

«كم امرأة عاشت هنا؟ ذاك البيت الجميل الذي هناك، ترى كيف كانت سيدته الأولى؟». كان يتساءل.

يدخل زقاقاً ضيقاً، وسؤال آخر يتبعه:

«كيف كانت حال النساء في هذا الشارع الضيق قبل ٥٠٠ عام؟».

«حسب تسارع الزمن، ونسبية أينشتين، وجاذبية نيوتن، ومبادئ

روسو عن الحرية والمساواة، وحسب ثورات المتشددين في مجتمعنا، وخطيب المسجد المجاور الذي يرفض قيادة المرأة للسيارة، وعطرها، وكعبها العالي، فإن حال النساء في هذا الزقاق الضيق في لندن قبل ٥٠٠ عام تشبه كثيراً حال سارة اليوم».

عاد هشام يفكّر فيما قصدته كاتبة الرسالة بقولها: «لي تجربتي»، ثم أخذ يفكر في وصفها للخيانة أنها «ليست جسداً يخون الجسد. تلك نتيجة لا أكثر. الخيانة الحقيقية هي في السبب الذي يدفع إلى فعل الخيانة، لا الخيانة ذاتها، ولا الفعل ذاته».

لكن «وهل أحد غير الرجال يعرف السبب؟» قال يحدث نفسه ويواصل سيره بهدوء واضعاً يديه في جيبي معطفه اتقاء البرد.

«ربما قصدت التحدي، أو التحذير، أو الاستهزاء».

لكن ما قصدته سارة كان أبعد من ذلك.

«يا لها من امرأة» يفكر من جديد والبخار الدافئ الخارج من فمه وأنفه يسبق خطاه: «مع من ارتكبت سارة الخيانة يا ترى؟»

«من ذاك الذي تمتع بها؟»

هكذا وجد نفسه مهتماً ليس بمضمون الرسالة بقدر اهتمامه بتجربة كاتبة الرسالة مع الخيانة.

يريد أن يعرف أكثر: كيف، ولماذا، ومع من؟

من تلقاء نفسه افترض هشام أن سارة صاحبة تجربة. من مجرد كلمة عابرة أو جملة لعلها ما قصدت منها شيئاً.

بالنسبة إلى هشام وكرجل من المجتمع ذاته، فإن أي امرأة تلامس الخطوط الحمراء لن تكون بعيدة عن أي تجربة حمراء.

ولن تشفع ثقافة رجل مثله، لامرأة مثلها، أن تكون كغيرها من النساء: لعاب ليل، بل ليلة واحدة فقط!

لكن أهذا صحيح؟

تذكّر هشام يوم كان شغوفاً بالاكتشاف في أيامه الأولى كرئيس تحرير. في تلك الفترة كان فهم المرأة يستعصي عليه، أو هكذا اعتقد، اليوم هو وبعد بضع سنوات من التعامل المباشر معها، يقف وجهاً لوجه أمام استعصاء من نوع آخر.

هدف أي رجل عاش محروماً هو اكتشاف ذاك العالم الأحمر، عالم المخيلة المخضبة بآهات تتلوى اشتهاءً.

هو ككل رجال بيئته، مسكون بهاجس المرأة والجوع إلى لذة لا تنتهي.

وهو يجتاز الطريق الضيق، عبر هواء اغتسل بثلج الصباح، فكّر كيف كان يستمتع بقراءة رسائل النساء إليه يوم تولى منصبه.

ربما كان يتلذذ بعذاباتهن، فيتسلل من خلالها كمن يبحث عن فريسة جريحة.

كانت تصله كل أسبوع مئات الرسائل البريدية المكتوبة. أما رسائل الأنترنت فكانت أكثر من أن تحدد بكمية. وكلاهما، وضعته أمام أبواب المرأة. فجثا كالآخرين، أمام أسرارها وساقيها!

رسائل البريد كانت أكثر جرأة أحياناً، خاصة عندما تأتي بلا اسم كامل أو عنوان. لكن الرسائل الإلكترونية كانت، هي الأخرى، جريئة.

قواسم مشتركة كثيرة تربط ما بين الرسائل، أهمها العنف والخيانة والإهمال، وأكثرها تتحدث عن قصص الحب الفاشلة.

وغالباً ما اعتبرته بعض قارئاته عرّاب الحب، وحلاّل المشاكل، ونصيرهن الأول.

فهل كان كذلك حقاً؟

ربما ادعى هو ذلك من خلال بعض مقالاته. فقد كان أهم سؤال يوجّه إليه هو: هل تؤمن حقاً بما تكتبه دفاعاً عن المرأة؟

لم يكن له جواب قاطع دوماً. إلا إن أراد أن يكذب من فوره فيقول نعم هي أفكار أؤمن بها.

الحقيقة كانت تبدو أبعد من ذلك في معظم الأحيان. ولعله هو نفسه ما كان يدرك أنه يكذب حتى على نفسه.

تتقافز الأفكار في ذهنه وهو يخطو عبر نسمات باردة تجاه مكتبه. من بعيد يظهر له المبنى الزجاجي للشركة. دقيقتان ويصل، يتلهى خلالهما بفكرة غريبة:

«نحن البشر نستلذ مشاكل الآخرين.. تسعدنا مصائبهم».

صدق الكاتب البرازيلي باولو كايليو عندما قال إن بعض الناس يظهرون فقط في الأزمات ليس لمواساتنا، بل لإظهار تعاطف مسكون بلذة رؤيتنا «غارقين في المشاكل!».

هل الجميع كذلك؟ هشام يعلم أنه ربما كان هو نفسه كذلك، وإلا ما سر هذه السعادة التي كانت تبدو عليه أمام رسائل المهمومات؟!

مع تكرار الرسائل ذاتها، بدأ الملل يتسرب إليه منها. فأخذ يحيلها على ناديا، الزميلة المختصة بالرد واختيار ما يلائم وما لا يلائم النشر.

قبل أن يقترب من مكتبه، أعاد التفكير، وللمرة الأخيرة، في ما قصدته سارة بأن الخيانة تكمن في السبب لا النتيجة.

«أو تعرف سارة السبب؟ وهل أتاها السبب؟».

في المكتب، وحيث سوزي والقهوة السوداء تنتظرانه، سأل هشام عما أتاه من رسائل أو اتصالات.

كان يبحث عن صوت إيزابيل في فضاءات ذاك الصباح. إيزابيل التي ما اتصلت البارحة، أتراها نسيته؟

«اتصال واحد فقط من مكتب الإعلانات، للسؤال عن غلاف العدد القادم. سيعاودون الاتصال مرة أخرى».

كان هذا كل ما ينتظره، على ذمة سوزي.

علّق معطفه الثقيل على الشمّاعة قرب الباب، ووضع جاكيته على المقعد الكبير وراء مكتبه، ونظر إلى الرقيب: «كيف أصبحت اليوم؟»

قال وهو يسحب رسالة سارة التي تركها أمامه ليلة البارحة.

«هل قرأتها؟». سأل مستهزئاً قبل أن يطوي الرسالة بين يديه ويعود إلى مقعده.

اتصل بناديا المختصة بالرسائل. ما كانت قد وصلت بعد.

ترك رسالة لها مع موظف الاستقبال.

بعد خمس دقائق تدخل عليه ناديا مرتبكة كعادتها:

«أعتذر عن تأخري، أخبروني أنك سألت عني».

دفع لها بالرسالة طالباً نشرها في صفحة بريد العدد القادم من المجلة. بينما انصرف هو يقرأ أوراقاً أخرى أمامه، كانت ناديا تقرأ الرسالة على عجل، باحثة عن سر اهتمام رئيس التحرير بها واستعجاله نشرها، وهو الذي ما كان يعنيه كثيراً نشر رسالة أياً كانت فور وصولها.

أخذت تسير بهدوء خارج مكتبه وهي تواصل القراءة، وتختلس ما أمكن النظر إليه وهو يراقب خطوها. بعد أقل من دقيقة عادت.

نظرت إليه باستغراب وسألته:

ـ أتريد نشرها كما هي؟

فردّ عليها بسؤال آخر:

ـ وهل قرأتها كاملة؟

ـ نعم.

ـ إذاً انشريها كما هي.

ـ متى؟

ـ في العدد الذي يصدر الأسبوع المقبل إن أمكن.

ـ تعلم أن الأسبوع المقبل سيكون أول أيام الحج.

ـ وما علاقة الحج بهذه الرسالة؟

ـ يبدو التوقيت غير ملائم لنشر رسالة كهذه الآن. ألا يمكن الانتظار أسبوعين على الأقل؟

ملاحظة الزميلة كانت خبيثة لكنها صادقة. فالتحفظ عن نشر تحقيق جريء أو صورة مثيرة يبلغ ذروته في شهري رمضان والحج من كل عام. كل وسائل الإعلام السعودية والعربية تتحفّظ في هذين الشهرين. حيث الصلوات والاستغفار في ذروة الموسم، كما لو أن السماء تقفل أبوابها في الأشهر الأخرى.

يبدو أن الضحك يعدي والحزن يعدي والخوف يعدي أيضاً.

هذه السيدة العربية التي تعيش آلاف الأميال بعيداً عن المنطقة المجففة، تبدو خائفة من رسالة تشرح بعض معاناة بنات جنسها.

برغم ذلك أبدى هشام رأياً صارماً:

ـ نحن مجلة تعنى بهموم النساء في الحج ورمضان وكل أوقات السنة. انشري الرسالة عزيزتي من دون تصرف ولا مناقشة.

بصوت هو أقرب للهمهمة ردّت عليه:

ـ ما كنا ننشر مثل هذه الرسائل من قبل. لكن كما ترى، سأنشرها في العدد المقبل.

ـ حسناً تفعلين. ألسنا في زمن الإصلاح؟

قال ومضى يقرأ في أوراق أمامه.

ما كان اليوم طويلاً قط، ولا مثيراً في الوقت ذاته.

لقاءات كالعادة، مراجعات كالعادة، ثم تناول الغداء في المطعم اليوناني القريب من أجل رؤية خلاسية جميلة تعمل هناك، وإطرائها ببضع كلمات، ولِمَ لا؟

صديق من المغرب، اسمه حاتم، يصعد إلى هشام في مكتبه. هما صديقان منذ وقت طويل.

بينهما أكثر من قاسم مشترك، وبضع نساء.

يحضر حاتم قهوته معه، ويتحدث الصديقان عن رحلة قريبة إلى مهرجان ثقافي في أصيلة شمال المغرب.

مدينة جميلة تنام بكامل زينتها على أكتاف عاشقيها. فإذا سبقتهم في الاستيقاظ كعادتها، غسلتهم بعطر أطلسها، ثم أرخت على ضلالهم خصلات شجرها الباسق، وعندما يأتي المساء تقبل كلاً منهم على وجنيته، وتعطر يديه وقدميه مرة أخرى بأطلس ممزوج بشمس الأصيل.

أصيلة، التي تنظر كل يوم بطرف عينها إلى إسبانيا، تذكّر هشام

بإيزابيل التي لم تتصل، فيذكر قصتها لصديقه حاتم الذي يطمئنه إلى أنها ستتصل، وما عليه سوى الانتظار.

قبل أن يغادر حاتم، وقد أكمل قهوته، يتفق الصديقان على اللقاء في المساء.

عاد هشام يطالع ما سينشره في عدده المقبل. يرفع سماعة هاتفه ويستدعي أحد الزملاء. عندما أتى، طلب إليه أن يحضر ما لديه من صور مرشحة للغلاف. فالصورة الجميلة لرئيس التحرير كالصديق عند الضيق. فإذا ما انعدمت الحيلة، وتعذر الحصول على تحقيق أو مادة صحافية مميزة، فإن صورة فتاة جميلة ومثيرة على الغلاف قد تفي بالغرض المطلوب.

هل هذا ما يسمونه المتاجرة بجمال المرأة؟

ربما نعم. حتى لمجتمع سعودي محافظ.

الصورة الجميلة تضمن اتساع التوزيع. كثيراً ما فكّر هشام في السبب. وقد جاءه الجواب يوماً على لسان مسؤول في شركة التوزيع:

«لأن أكثر من ثلث القرّاء رجال يبحثون عن الجمال!».

مليارات أنفقت على مصانع تحلية المياه في السعودية، ولا يزال الرجال عطاشاً!

يبدو أن هشام ليس وحده من يعاني سطوة الرقيب. فحتى الناس العاديون أيضاً، عليهم رقيب من نوع آخر، يجيز ولا يجيز وفق قرار شخصي الأبعاد. إنه الجمال.

فكر هشام: «أيهما أقوى: رقيبي أم رقيب الناس؟»

عاد يختار، تحسباً، صور مجموعة من الفتيات للغلاف، آخذاً في

الاعتبار موسم الحج، فلا تبرز الصورة صدراً ناهداً وشفتين تثيران الثيران.

«فقط الجميلات، وحبذا لوكن محجبات!».

بهذه العبارة كان يخاطب زملاءه في كل اجتماع تحرير، خلال المواسم الدينية.

«وماذا بعد الحج يا سيدي الرقيب؟».

يسأل في سره وينظر إلى الرقيب.

ينهض هشام ويقف مائلاً إلى طاولته يرتكز عليها بيديه محدقاً إلى الصور التي تراصت أمامه، بعد أن أحضرها المختص بالصفحات الفنية.

يقلب بعض الصور، ثم يختار إحداها.

تأمل ما اختار، وتمتم: «ليت سارة بهذا الجمال!».

سأل زميلاً له دخل إلى مكتبه فجأة عن رأيه في الصورة.

«جميلة، لكن ألا تعتقد أن تفاصيل الجسد البارزة غير ملائمة لعدد هذا الموسم؟».

ردّ هشام: «المهم أنها محجبة».

ينظر إلى الصورة التي أمامه من أكثر من زاوية، قبل أن تدخل عليه ناديا، مسؤولة البريد، تستوضح منه إن كان بالإمكان نشر اسم سارة وبلدها، في صفحة البريد، مع رسالتها؟

«بالطبع» يجيبها هشام ويسألها هي الأخرى عن رأيها في الصورة التي اختارها للغلاف.

«جميلة، ولكن...» قالت ثم صمتت.

ـ ماذا؟ سأل هشام.

ـ أفضل صورة أكثر احتشاماً.

ـ ما بقي إلا أن نختار فتاة منقبة!

ثم عاد يسأل ناديا عن رسالة سارة:

ـ هل أرسلت لك عنوانها كاملاً؟

ـ لا يوجد سوى اسمها الأول، واسم البلد المرسلة منه الرسالة.

فكر في سره حانقاً: «لماذا لا يفرضون على الناس أن يكتبوا أسماءهم وعناوينهم كاملة قبل أن يرسلوا رسائلهم؟».

لكنه لم يلبث أن تراجع: «لا.. هكذا أفضل، وإلا ما كنت استلمت رسالة واحدة. والله ولا نصف رسالة. فمن هي التي تستطيع أن تجاهر، في مجتمع محافظ، باسمها وعنوانها وهي تكتب عن الخيانة الزوجية؟».

توجه إلى خارج مكتبه وفي يده صورة الغلاف التي اختارها. دفعها إلى المخرج ليضعها على الغلاف.

أثناء تجواله على مكاتب بعض الزملاء في الأقسام الأخرى رأى متدربة سعودية، اسمها نور، في سنتها الأخيرة في جامعة لندن. أتت إلى المجلة للحصول على دورة تدريب مدة شهرين، كجزء من متطلبات التخرج في بريطانيا.

سألها هشام عن حالها في المجلة، فأخبرته بسعادتها وهي تمارس العمل الصحافي الذي تمنته طوال عمرها. وأخبرته كيف أن جامعة لندن العريقة تعلمها قيمة الكلمة الصادقة، والموضوعية في الطرح بلا خوف، وكيف وجدت ذلك فعلياً في مجلته.

نظر إليها بطرف عينه مبتسماً وهو يشبك يديه وراء ظهره. «هل تسخر

مني؟» تساءل في سره، ثم رفع رأسه وتابع حواره مع ذاته: «لا. هي لا تسخر من أحد، هي فقط لا تعلم بأمر الرقيب الملتصق بأحلامنا».

واصل تصنع ابتسامته وتمنى لها التوفيق بعد التخرج.

وهو يدير ظهره عائداً إلى مكتبه، فكر كم ستكون صدمة الصغيرة كبيرة مع الصحافة.

عرّج على المخرج كي يتأمل الصورة التي اختارها للغلاف مرة أخرى، قبل أن يواصل خطاه إلى مكتبه.

تدخل عليه بعد لحظة المتدربة الصغيرة، بحماسة تشعّ من عينيها، تطلعه على مقال كتبته. يقرأ مقدمة ما كتبت سريعاً ويهنئها على الأسلوب.

تغادر مكتبه وهي تكيل له أنواع الشكر، بينما هو يتأمل قوامها، وصدرها الذي بالكاد نبتت تضاريسه.

تبلغ نور من العمر ٢١ عاماً. فتاة جميلة، وأنيقة، ومثيرة أيضاً.

فكَّر هشام: «كيف لم يحل أهل هذه الفتاة دون أن تتعلم ابنتهم وتعمل وسط الرجال في لندن، الأرض البعيدة عن الوطن. لعلها استثناء؟ فهل سيسقط الاستثناء يوم تعود الفتاة إلى بلدها فتنزوي بكل طموحها كالأخريات في طرف من عباءتها خوفاً من شيطان الخطيئة؟

ألا يعمل هذا الشيطان في لندن أيضاً؟».

أصبح هشام، منذ رسالة سارة واتصال الرقيب، يفكر في كل صغيرة وكبيرة تعرض له.

ذكرى بسيطة أضحكته، وشر البلية ما يضحك.

ذات يوم كان في زيارة لشقيقته في جدة. كانت تسكن في الطابق السادس من بناية حديثة.

بعد الزيارة، وفي طريقه إلى الأسفل، وقف ينتظر أمام باب المصعد. لم يطل انتظاره. فما إن فتح الباب وهمّ بالدخول، وإذ بيد قوية تدفعه إلى الخارج. كان في المصعد رجل وزوجته المتحجبة التي لا يرى منها حتى الظفر. قال له الرجل بعنف: «ألا ترى حريمي معي؟!».

«ومن سيأكلهما يا أخي؟» تساءل هشام في سره وهو ينسحب إلى الوراء دون أن ينطق سوى بكلمة «آسف».

من يحق له أن يتأسف فعلاً: هو أم ذاك الخائف على زوجته من رجل غريب يجاورها في رحلة مصعد مدتها عشر ثوان؟

يكفي المصعد لعشرة أشخاص، بل لقبيلة كاملة، فلماذا خاف الرجل على «حريمه» من هذا الغريب؟ ثم أليس هو معها؟

مجتمع لا يضمن فيه الرجل عفة زوجته مدة عشر ثوان، وهي برفقته متلحفة بسوادها، لا يمكن أن يكون بخير على الإطلاق.

«ترى بماذا كان يفكر ذلك الرجل. وبماذا كانت تفكر المرأة؟».

صوت من داخله أجاب: إنه الخوف يا رئيس التحرير.

الخوف من الخطيئة.

لأننا نخطىء، أو لأننا لا نتوانى عن الخطأ، فقد بتنا نرى العالم مثلنا. الخوف الساكن عقولنا من أن نعامل نحن الرجال بالمثل، يقتل الثقة في داخلنا حتى في داخل أكثر النساء قرباً ووفاءً لنا.

قوانين الفصل العنصري بين الذكر والأنثى خلقت حاجزاً من عدم الثقة بين الإثنين، أكبر من أن تستوعبه حجرة المصعد.

لا يفهم الرجال أن المرأة إن أرادت الخيانة فهي قادرة عليها ولو

سجنت بين أربعة جدران مثلما لو هي أرادت العفة فلن يغريها ألف رجل وإن كانت الوحيدة بينهم «في ذات المصعد».

لهشام صديق، لم يثق يوماً بزوجته، وكثيراً ما كان يردد عبارة لأحد الفلاسفة: «عقل المرأة مثل جسمها، جميل لكنه ضعيف». فهل أفهم أنا أكثر من فيلسوف؟ كان يقول الصديق.

عند المساء، كانت معظم صفحات المجلة جاهزة كي يطلع عليها هشام للمرة الأخيرة قبل أن يعطي أمر الطبع.

منذ موضوع الخيانة الزوجية، وهو أكثر حرصاً على قراءة كل ما ينشر في مطبوعته.

«هذا الموضوع جيد، آه هذا يحتاج إلى قراءة أخرى، ممم... هذا في حاجة إلى تعديل».

وفي آخر الصفحات، طالعته قصة قصيرة تتحدث كاتبتها عن سيدة مطلقة قررت بعد طلاقها أن تتابع دراستها في الخارج.

في جامعتها الباريسية، تعرفت إلى رجل من خارج بيئتها، وثقافتها، ومذهبها. نشأت بينهما قصة حب، فأخبرت أهلها أنه يطلب الزواج بها. ثار أهلها رافضين زواج ابنتهم السُنِّية من رجل شيعي، وأرسلوا شقيقها الأكبر لإعادتها، فلا حاجة للدراسة بعد اليوم. أخبرت شقيقها أنها ما اختارت زوجها الأول بل هم من اختاروه لها، ومن حقها هذه المرة أن تكون صاحبة الاختيار.

بلا تردد تقرر الزواج بزميلها، رافضة العودة إلى بلدها مع شقيقها. وقبل زفافها بأسبوع كتبت إلى أهلها تعلمهم بالتاريخ المحدد لعقد

القران، وكم يسعدها حضور أحد منهم، كي لا تكون وحيدة في حفلها. لكن أحداً لم يحضر.

لها عمة كانت تزور ألمانيا للعلاج من حادث أصاب ساقها، فقررت زيارة ابنة أخيها في فرنسا بعد الزفاف بيومين، وهناك أخبرتها بأن والدها قد أعلن أمام الجميع وفاة ابنته.

قرأ هشام القصة، وتردّد في نشرها.

أعاد قراءتها مرة ثانية وثالثة...

ثم قرر بكل شجاعة عدم النشر.

لكنه تردد حتى في عدم النشر. فأعاد التفكير في الأمر كمن بيده تحديد مصير البشرية كلها.

ثم قرر نشر القصة مع تعديل بسيط في المضمون.

سألته الزميلة: ما الذي تريد تعديله؟

- شذّبيها. أزيلي الشوائب منها. أزيلي فكرة اختلاف المذهب هذه؟

- لكن اختلاف المذهب هو المحور الأساس للقصة؟

- لست أنا ولا أنت ولا كاتبة القصة من سيصلح أخطاء المجتمع.

من سيصلحها إذاً؟ سأله صوت من داخله، فقمعه.

- نفّذي التعديلات وأريني القصة قبل الطبع.

بارتباك أجابته:

- ستكون جاهزة بعد نصف ساعة.

عاد هشام يقلب ما تبقى أمامه من صفحات.

بعد أن فرغ، اتصل بناديا يستوضح مصير رسالة سارة التي يفترض نشرها في العدد الذي سيرسل إلى المطبعة.

أحضرتها ناديا وقد نشرتها كما هي على ثلاثة أرباع الصفحة، كما طلب هشام أول مرة.

وضع الصفحة أمامه ينظر إليها وإلى ناديا.

أخذ قلماً أحمر كانت تحركه بعصبية في يدها.

اختصر سطراً من هنا وسطراً من هناك. ثم عبارة من هنا وعبارة من هناك.

في بضع ثوان تقلصت الرسالة إلى أقل من ربع صفحة. أو لنقل إلى بضع كلمات.

لم يهتم بنظرة ناديا المستغربة إليه، بل كان يفكر في قول صديق قديم له ذات يوم إن الإنسان الشجاع هو ذاك الذي لا يحس بالعواقب. وهشام وإحساس العواقب لا يفترقان.

لم يكن ما أعمله هشام في رسالة سارة اختصاراً، بل تدميراً.

لا يمكن لمن رأى الرسالة الأصلية أن يقتنع بأنها تلك التي مسخت إلى ربع صفحة. كان حجم الاختصار يكشف عن عمق التأثر بما قاله الرقيب عندما اعترض على نشر تحقيق الخيانة الزوجية، والرقيب أقوى من سارة وجبن هشام.

دفع بصفحة البريد المجروحة إلى ناديا، طالباً اختصار وتعديل ما أشار إليه باللون الأحمر.

«هل تريد أن تلقي نظرة أخرى بعد التعديل؟» سألته.

«لا، اطبعيها مباشرة» أجاب بحدة.

ربما هو الخوف من مواجهة الخوف.

تقترب الساعة من الخامسة مساء، ولم يحن موعد الخروج بعد.

لكن هشام أحس بتوعك قرر معه أن اليوم قد انتهى بالنسبة إليه، أو يجب أن ينتهي فقد كان الاختصار مؤلماً بما يكفي.

كأية متزوجة في الليالي الطويلة، تشتاق المرأة إلى مهرجان من التأوهات!

تطرف هو ربما أو تناقض. لكن الآخر في حياتنا قد يكون مصدر سعادتنا، أو هو الشقاء.

لا يمكن أن يعيش الإنسان بنصف مشاعر، ونصف تأوه.

«اللعنة على زواج محروم من صرخات لذته».

كثيراً ما قالت سارة ساخطة تحدث نفسها، وقد كتبت العبارة ذاتها في يومياتها أكثر من مرة.

ليست كل متزوجة زوجة بالضرورة. فرق أن تكون المرأة متزوجة، وأن تكون زوجة.

أن تكون متزوجة، فهذه صفة ما هي عليه. أما أن تكون زوجة فذاك يعني زوجاً وعاطفة وسريراً.

تسترجع سارة قصص بعض صديقاتها: نورة، ليلى، سعاد، عفراء... وغيرهن.

نصفهن سعيدات، أو على الأقل راضيات بحياتهن، مجرد راضيات.

إذ هناك فرق بين السعادة والرضى. السعادة هي شيء تصنعه باختيارك. والرضى شيء تجبر على التعايش معه.

تعيسة هي امرأة لا يحبها زوجها، وكارثة إن أصبحت «مطلّقة».

لسارة صديقة تزوجت ابنتها في سن الطفولة برجل يكبرها بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً.

طلقت الصغيرة باكراً، ولم تكمل عامها الأول بعد. عادت إلى بيت أهلها مكسورة وقد افترس العجوز كل ما فيها، حتى بقايا الطفولة.

أصبحت مطلقة ولم تكمل عامها السابع عشر بعد.

كان يضربها. وعندما عادت إلى بيت أهلها مطلقة ضربها أبوها.

لماذا لم يجرؤ على ضرب زوجها؟

أتعرفون لماذا..؟

لأن الزوج الكبير كان إمام مسجد. رجل دين وتقوى، كما يقول الأب. ولا يمكن لرجل التقوى أن يخطئ. ابنته هي المخطئة!

هدى الصغيرة، ما أرادت، يوم ضربها أبوها، أن تخبره أن الرجل التقي كان شاذاً.

برغم ذلك ارتضت شذوذه، حتى ملّ هو منها، ومن كثرة ما ضربها.

ما مصير هدى؟

أمها صالحة اتصلت بسارة البارحة، تتمنى أي زوج لطفلتها.

- لكنها طُلقت تواً. قالت لها سارة.

- تجرب حظها مرة أخرى!

- لم لا تمنحينها فرصة ترتاح فيها من التجربة الأولى، ثم تختار.

- وكيف ستختار، وتختار من؟ هي مطلقة. وتحمد الله أن وجدت من يقبل بها.

- لكنها ما تزال صغيرة وجميلة، وستجد شاباً يلائمها.

- الشباب يبحثون عن امرأة ثرية، أو فتاة عذراء.

الكلمة الحمقاء مرة أخرى... «عذراء».

ما الفرق بين العذرية واللاعذرية؟

حتى هذه الصديقة الكبيرة، المثقلة بتجارب الحياة، تردّد ما يقوله الرجال: «الشباب يبحثون عن فتاة عذراء».

بقدر ما تهبنا الحياة خبراتها، تسلبنا قوة التفكير بالقوة والمقدار نفسيهما. وأم هدى مثال على ذلك هي أيضاً ترى العذراء أفضل.

«ماذا لو لم تكن عذراء وأجرت عملية جراحية؟» تساءلت سارة وهي تخطّ بعض يومياتها.

«لا تسكن العفة بين الفخذين، العفة في العقل». هكذا أنهت جملتها وأقفلت كتابها.

كان الوقت بعد الظهر، عندما تمددت على سريرها وهي تتذكر حديث صديقتها عن ابنتها المطلقة.

السرير عريض جداً، يبدو لمن يراه من زاويته كحديقة صغيرة تقف في أحد أركانها وردة وحيدة، عليها آثار عطش، ولا من يروي ترابها.

أحياناً تبدو الحديقة كملعب فيه لاعب واحد فقط، أما الآخر فغائب معظم الأحيان... وإن حضر كان أداؤه ضعيفاً.

... أحياناً لا يكون بالمرة.

هل يجب البحث عن لاعب آخر؟

تغمض عينيها لحظةً قبل أن تنهض وقد تناهى إلى سمعها بكاء أحد طفليها. تهرع إلى حجرته حيث الخادمة تغيّر حفاضه. تتولى المهمة عن الخادمة. تضمّ طفلها إليها، بينما ينظر إليها الآخر مبتسماً.

تصدر منه ضحكة فيها براءة السماء.

ترفعهما إليها، وتحضنهما، ثم تدندن أغنية وهي تتأرجح يميناً ويساراً تفكر كيف ستمضي السنوات سريعة، ويكبر الصغيران، وتبقى هي وحدها.

تساءلت وهي تضعهما في سريرهما: ماذا ستفعل عندئذٍ؟

كان لسارة نظام صارم: برغم حنانها، في تربية طفليها. لعلها ندمت على ذلك لاحقاً عندما خلق خوف الصغيرين منها، حالة سكون أكبر مما تحتاج إليه، وهي التي اشتاقت إلى الصخب.

عادت إلى غرفتها واستبدلت ثيابها بأخرى أكثر شفافية وإثارة.

في مخدعها صمت، وهدوء، ومرآة.

كل عناصر الإثارة اجتمعت تلك اللحظة في جسد طافح برغباته.

تنظر إلى نفسها في المرآة.

تجلس على المقعد، تسرّح شعرها. تضع قليلاً من عطرها الذي تلقته أخيراً هدية منها.

تحضن فرشاة شعرها، وتنظر مرة أخرى إلى تفاصيل وجه المرأة التي أمامها. أحياناً ما كانت تعرفها.

تنتصب واقفة تتأمل الجسد الرخامي وراء الشفاف يتضور جوعاً.

قبيلة من الرجال يبيد بعضها بعضاً من أجل جسد كهذا، أو قطعة منه!

سارة أجمل مما تعتقده المرآة. وجوعها أكثر اشتهاءً لرجل غائب.

لو قدر لامرىء أن يرى سارة تلك اللحظة، لأقسم أن زوجها أكبر حمار عرفه تاريخ الحمير.

حتى المرآة اشتهت سارة، بينما السرير يبتسم ساخراً وقد تجمدت قوائمه من قلة حراكها. لم يهتز هذا السرير منذ وقت طويل. لذلك

استحق أن تطلق عليه اسم أبي الهول. صامت لا يتحرك، كمن خلق ميتاً منذ آلاف السنين.

لو كانت كتلة الخشب الماهوجني هذه تتحدث، لو كانت الحيطان تتحدث، لو كان اللون الأحمر يتحدث، لتدفق سيل من حمم الشوق إلى خارج الغرفة، فخارج المنزل، فخارج الحي، حتى التلة المطلة على المدينة. حيث تلتقي الأرواح المعذبة في وحدتها.

بهدوء تدير الموسيقى التي تحب. سيمفونية لشوبان. تذكرها السيمفونيات العالمية بشيئين: عظمة الإنسان، ونشرات الأخبار في التلفزيون السعودي.

«لا أعرف من اختار أجمل السيمفونيات لتكون خلفية أخبار ملأى بالنفاق والعنف؟» تساءلت في تهكم.

كان الوقت صباحاً، وشوبان مرحب به في أي وقت. أحياناً تستبدله بموسيقى أكثر صخباً، فالهدوء في حياتها أعظم من صمت الموتى!

كانت سارة قد نسيت الرسالة التي كتبتها إلى رئيس التحرير، قبل أسبوعين أو أكثر. نسيت حتى ما جاء فيها.

تذكرت ذلك عندما رفعت عينيها عن كومة من المجلات بقرب سريرها أبي الهول!

بعد قليل سيتصل بها زوجها ويخبرها أنه قادم بعد يومين.

حضوره هذه المرة قد يكون مميزاً، لأنها قررت أن تتحدث معه عن وحدتها الطويلة، وهو المسافر دائماً. كانت تريد أن تقترح عليه التقدم لوظيفة تملأ بها وقت فراغها، أو تنتظر منه أن يقترح عليها ما يزيل الوحدة الطويلة عن أيامها. أي اقتراح كانت جاهزة له، ولو كان طلاقها منه.

بالأمس كانت وحدتها أقل حدة، يوم زارتها بعض صديقاتها. أولى الحاضرات كانت عفراء. سعيدة ومرحة هذه العفراء. لا تغادرها الابتسامة ولا علبة المارلبورو. التفاؤل الذي تحمله يحتاج إلى إرادة، لكنه مع سارة يحتاج إلى معجزة.

ربما خلقت عفراء من مطاط قادر على امتصاص الصدمات في حياتها. «ليوفقها الله» دعت سارة لها، وهي تلقي بجسدها على السرير وتنظر إلى حيث تكومت بعض المجلات بقرب سريرها.

تستل مجلتها من الكومة وهي تهيء نفسها لاستقبال زوجها.

لكن أمامها يومين، فلم تستعد منذ الآن؟

ثم كيف تستعد؟

تطالع ساعتها، وتعتدل في جلستها وهي تفكر في صنع بعض الحلوى لأقرباء سيزورونها في المساء. لا يزال الوقت مبكراً على أية حال. تضم رجليها في زاوية حادة وقد أسندت ظهرها إلى رأس السرير، تقلب صفحات مجلتها. بعد فترة هدوء وتأمل في اللاشيء، تنهض كي تضع شريطاً موسيقياً، قبل أن تعود إلى سريرها، بثيابها الشفافة، وقد انكشف جزء من ساقها حتى الفخذ.

تداعب قليلاً ما انكشف. ثم تداعب أكثر. ثم تغطي جزءها وهي تستغفر الله وتستعيذ به من الشيطان.

تعود إلى مجلتها التي انكفأت على وجهها، تقلب صفحاتها، بادئة بالصفحة الأخيرة.

أحست بنعاس يفرض حضوره، جنباً إلى جنب مع رغبة تجاهد في الحضور.

تستعيذ بالله للمرة الثانية، وتعود إلى مجلتها.

تقلب الصفحات سريعاً، تاركة أمر ما يستحق القراءة إلى وقت آخر.

ربما يكون بعد غد هو الأفضل للقراءة، عندما يعود خالد، زوجها. يجب أن تشتري الكثير من المجلات إذاً.

لم تكن صفحات البريد تعني لها الكثير، بل لم تكن قارئة لها. ناقدة جيدة هي ربما، لكن ليس بالضرورة قارئة جيدة لرسائل الآخرين.

تصفحت المجلة حتى وصلت إلى صفحة البريد. وقعت عيناها على رسالة لإحدى القارئات بحجم ربع صفحة في موضع لا يرى بسهولة. جذبها عنوان الرسالة:

«عن أي خيانة تتحدثون؟».

عندما قرأتها من باب الفضول، لكونها الموضوع الذي أثارها منذ فترة، تطلب الأمر أكثر من قراءة واحدة كي تتأكد أن ما تقرأه هو الرسالة التي كتبتها بنفسها قبل أسبوعين، أو يزيد.

كانت الرسالة المنشورة تختلف عن تلك التي كتبتها. تختلف كثيراً جداً. شيئان جعلاها تعتقد أنها رسالتها: عنوان الموضوع، واسم المرسلة: سارة.

استغربت، وفكرت، ثم تساءلت:

«هل هذه هي الرسالة التي كتبتها؟ هل هذه العبارات الممسوخة كلماتي؟».

لا شيء، تماماً لا شيء، له علاقة بالرسالة التي كتبتها سارة يمت بصلة إلى ما هو بين يديها.

هل تعلمون ماذا فعلت سارة؟

لا شيء.

تمدّدت على سريرها، وأغمضت عينيها، وعادت تداعب نفسها من جديد بلا استغفار!